مقدمة

حلّ العالم العربي ضيف شرف على معرض فرانكفورت سنة كاملة ليقدم فيها مظاهر الحضارة الإسلامية بدءاً باليوم السادس من الشهر العاشر من عام ٢٠٠٤م.

لم يكن معرض فرانكفورت للكتاب معرضاً لبيع الكتب، وإنما هو تظاهرة ثقافية عالمية، تتحدث عن الحركة الثقافية على سطح هذه المعمورة، يلتقي فيه الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، يجتمع المثقفون وأهل الفكر وممتهنو النشر والعلماء في ردهاته التي قامت مع حدائقها ومرافقها على أرض شاسعة تزيد على ١٦٠ ألف متر مربع، يتحاورون ويتناظرون ويطلعون على أحدث ما وصل إليه الفكر والثقافة والعلم؛ لا يُحظر فيه فكر ولا يمنع فيه كتاب ولا توضع وصاية فيه على أحد، ولا رقابة على موضوع.

كان المعرض فرصة عظيمة للعرب وللمسلمين، جاء في وقت تشير فيه أصابع الاتهام إليهم بالعنف والتخلف والانحطاط، فيشوه ذلك كله صورهم، ويقدمهم إلى العالم تقديماً غير حسن، وكان عليهم أن يقدموا أنفسهم كما ينبغي.

وفتحت ألمانية صدرها بالمحبة، وفتحت أبوابها على مصاريعها مشرعة لتستقبل العرب.. وفي يوم الافتتاح وقف المستشار الألماني يقول للعالم بعبارة واضحة: «فالإسهامات الحضارية الهائلة للثقافة الإسلامية لا تنكر، وتظهر واضحة حتى اليوم في العديد والعديد من المدن الأوروبية الهامة» وقال: «لقد أصبحت التصورات عن المجتمعات الشرقية في السنوات الأخيرة مصبوغة بالتشويه والآراء المسبقة والعموميات الهوجاء، وكثيراً ما تطلق أحكام عامة جداً عن الإسلام أو المسلمين بعجالة وبلا تفكير، وكذلك عن جهل في بعض الأحيان، هذا بدلاً من إدراك التنوع الذي يتيحه الإسلام..».

وانتثرت في أروقة المعرض الوجوه العربية والكتب العربية والمظاهر العربية.. ودخلت إليه العمائم واللحى.. وتكلم اللسان العربي في أبهائه.. ولم يعد الفتى العربي هناك غريب الوجه واليد واللسان..

فهل كان العرب على المستوى المطلوب؟.

هل قدموا ما يجب أن يقدموه؟

هل استطاعوا أن يصلوا إلى عقول الغربيين ويقنعوهم بالرسالة التي يحملون.. الرسالة التي همشتها أمريكا وحلفاؤها، وساعدوا هم على تهميشها من حيث يدرون أو لا يدرون؟.

كان العرب والمسلمون من قبل أمة واحدة فيما بينهم، ويداً واحدة على من سواهم فارتقوا، وحكموا الدنيا، وكانوا مقبولين من الآخر.

ودخلوا فرانكفورت اليوم شيعاً وأحزاباً وطوائف وفرقاً لم يدروا كيف يقدمون أنفسهم.. لم يستطيعوا أن يرفعوا أصواتهم عالياً...

ولقد شعرت دار الفكر بواجبها المسؤول تجاه هذه الفرصة فبرمجت أعمالها، وأنشأت من أجل ذلك جماعة منتدى الفكر للحوار من عدد من أصحاب الرأي والفكر قدموا آراءهم القيمة ومقترحاتهم الجليلة، كما أحدثت موقعاً إلكترونياً كانت تعرض فيه ما يستجد من أمور المعرض يوماً بعد يوم، اصطحبت معها أكثر من اثني عشر مؤلِّفاً

ومفكراً وباحثاً ممن يلوذ بها، قدموا في جناحها هناك محاضرات في موضوعات الساعة. ووزعت منشورات تعــرِّف بالأدب العربي والفكر الإسلامي بالألمانية والإنكليزية والعربية.. وعرضت المفيد من الكتب، و لم تكتف الدار بــذلك بل إنها اشتركت مع السفارة الألمانية ومعهد غوته بدمشق في مظاهر ثقافية متنوعة.

وبعد:

فهذه المقالات التي يضمها هذا الكتاب صدرت على الموقع المشار إليه مقالة كل أسبوع قبل موعد المعرض بواحد وعشرين أسبوعاً، عاشتها دار الفكر بكل أعصابها، تترقب الموعد تحسب له الحسابات. تشفق من ورائه أن يكــون حظها منه حصاد الهشيم أو قبض الريح. وتلتها خمس مقالات تتحدث عن مرحلة المعرض وما بعده .

على أنها فوق ذلك مقالات هامة تؤرخ لحقبة ثقافية عاشها العالم العربي خلال عام ٢٠٠٤، وهي حقبة حرجــة بمستجداتها، يحسن أن تدون للحق وللتاريخ الثقافي.

وقد رُتِّب هذا الكتاب تلك المقالات على تسلسلها الزمني، من أجل أن يسير القارئ مع الوتيرة المتصاعدة منذ ما قبل المعرض، ومنذ الاستعدادات الأولى له، ثم بعد الرجوع منه بالانطباعات والتجربة التي نرجو الله أن تكون مفيــدة في العمل الثقافي والفكري.

وصُدر الكتاب بالرسالة التي وجهتها الدار إلى المفكرين وأهل الثقافة والمعرفة تعلمهم فيها عــن الحــدث المهــم والمسؤولية الملقاة عليهم.

رسالة إلى المفكرين

لتعريفهم بالمعرض ومسؤولياتهم فيه

بمناسبة اختيار معرض فرانكفورت للكتاب العالَمَ العربي ضيف شرف لعام ٢٠٠٤م، والمغزى الكبير الذي يحملــه هذا الاختيار، والفرصة التي يتيحها لثقافتنا العربية الإسلامية كي تعبر عن نفسها وعن الجوانب الإنســانية والقــيم السامية التي تنطوي عليها، وإيماناً من دار الفكر بمسؤوليتنا الكبيرة المشتركة عن إنجاح هذه التظاهرة الثقافية الكبرى، وتمكينها من بلوغ أهدافها في تقويم صورتنا التي تضافرت على تشويهها في نظر الغرب عوامل؛ بعضها ذاتي من عنــد أنفسنا، وبعضها – وهو القسم الأعظم – خارجي؛ عن جهل أحياناً، وعن علم وقصد وتصميم، ســببه التعصــب والأنانية والأثرة والحقد ورفض الآخر و العمل على سحقه في معظم الأحيان .

ولعل الهدف الأبعد وراء تصحيح صورة ثقافتنا أن نمهد لها الطريق لأداء دورها الحضاري الفاعــل في الصــراع الحضاري الراهن الذي يؤذن بانتهاء دور الحروب والنــزاعات المسلحة التي أيقن الإنسان من خلال تجاربه المريــرة بإخفاقها في حل النــزاعات، وبضرورة إحلال التحاور والتفاوض على الموائد المستديرة محلها.. وهو مــا أدركتــه أوروبة فبنت على ضوئه اتحادها الأوربي بدأب وصبر عجيبين، ولمــّا تدركه الإدارة الأميركيــة المتصــهينة بعــد، ولسوف تجبرها قوانين التاريخ وكفاح الإنسان من أجل التقدم على إدراكه.

إن ذلك كله يؤكد أن معركتنا القادمة معركة ثقافية، وأن فرص نجاحنا فيها كبيرة نظراً للفــراغ الإيــديولوجي الذي يعاني العالم منه الآن، وللمخزون الفكري الكبير الذي نمتلكه، وينتظر منا الوعي به والجــد في التنقيــب عنــه وإعادة إنتاجه.

إن أبرز سمات الأسلحة الفكرية التي تشهرها الأمم في معاركها الثقافية أنها أسلحة نظيفة لا تدمر بنياناً ولا تقلع شجرة ولا تقتل إنساناً. ومصانعها لا تنفث دخاناً ولا تلوث بيئة..

وإن أكبر مصانع هذه الأسلحة الفكرية هي معاهد العلم ومراكز الأبحاث والإبداع ووسائل الإعلام ودور النشر، التي نهيب بها أن تكون واعية لدورها المقبل، وأن تبقى معنا في حالة استنفار قصوى لإنتاج مادة فكرية مؤثرة وقادرة على إحداث تغيير في وعينا الثقافي الذاتي، وفي طرق إيصال رسالتنا الثقافية إلى العالم.

لقد حددت الاتفاقية المبرمة بين جامعة الدول العربية وإدارة معرض فرانكفورت للكتاب السبل التي سيتم بواسطتها عرض ثقافة ضيف الشرف، وتضم إضافة إلى معارض الكتاب والفنون التشكيلية والتراثية عروضاً فنية وأفلاماً سينمائية، ومسرحيات تقدمها شركات عربية رائدة، وندوات، ومحاضرات، تشتمل على طيف واسع من التنوع الثقافي واختلاف الآراء، مع مراعاة الهويات الثقافية المحلية، تُقدم الأدب والثقافة المعاصرة لشريحة واسعة من عامة الناس ووسائل الإعلام، وتوفر فرص الحوار والتفاعل بين الثقافات.

ويتعهد معرض فرانكفورت للكتاب بالحفاظ على حرية التعبير وإقامة المعرض على مستوى عالمي راقٍ في مجالات السياسة والثقافة، كما تؤكد الجامعة العربية أن هدفها الأساسي هو شرح دور الثقافة العربية والحضارة الإسلامية، وستضمن عدم القيام بأي حملات ضد عارضين أو دول أو أطراف ثالثة في المعرض، كما تضمن إدارة المعرض بالمقابل من جانبها عدم السماح لأحد بشن أي حملات ضد ضيف الشرف (جامعة الدول العربية) من قبل عارضين أو دول أو أطراف ثالثة في المعرض.

وقد اتفق الطرفان على أن تكون اللغة الإنجليزية لغة التخاطب في هذا المعرض.

إن دار الفكر - بالقدر الذي ترى في هذا الحدث فرصة نادرة تتيح للثقافة العربية الإسلامية أن تعبر عن نفسها بنفسها، وأن تصحح صورتها التي أريد تشويهها - يساورها قلق بالغ من أن تمر هذه الفرصة من دون تحقيق أي هدف من أهدافها، أو أن تحقق أهدافاً معاكسة تؤكد الصورة المشوهة لها، وأنها قد خرجت من التاريخ، و لم يعد لديها ما تقدمه للحضارة الإنسانية.

مبعث القلق لدى دار الفكر، هو ما تعودناه في أعمالنا من ارتجال وتواكل وإهمال وسوء تخطيط، حتى إذا أزفت الساعة، رحنا نكد أذهاننا فيما يمكن أن نصطحبه معنا من أعمال جاهزة غير معدة للمناسبة.. هذا إذا لم نتعامل مع الحدث على أنه فرصة للترويح عن النفس وقضاء إجازة ممتعة.

وأمر آخر هو نوع الثقافة التي ستعرضها: أهي ثقافة التاريخ المجيد، أو الواقع المعيش المهيض، أو المستقبل الواعد المؤمَّل؟! أهي ثقافة احتكار الحقيقة وتكفير المخالف ونفيه، أم هي ثقافة التعارف والحوار والتكامل؟!

وإننا في دار الفكر نعد أنفسنا في حالة استنفار قصوى مع جميع المفكرين العرب والمسلمين، لاغتنام هذه الفرصة والتحضير لها.

وأولى مهامنا، التي نحرص على أن تكون مشتركة؛ الإجابة السريعة على الأسئلة التالية:

١-فلسفة المشاركة العربية في هذه التظاهرة والهدف منها.

ً٢-الخطوط العريضة لماهية الثقافية العربية الإسلامية في خمسة أسطر تصلح لأن يكون كل منها عنواناً كبيراً لمعلم رئيسي من معالمها.

ً٣-ماذا يمكن للعرب (عموماً) أن يقدموا لهذه التظاهرة خلال أيام المعرض وطوال عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥؟

ً٤-ما المحاور الرئيسية التي تقترحونها لندوات حوارية مع الآخر الغربي أو المستغرب.

ً٥-هل لديكم إنتاج مطبوع أو مخطوط يخدم هدف المعرض؛ يخاطب العقل الغربي ويصلح للترجمة إلى لغاته؟

سيكون لسرعة ردكم أثر كبير في دفع عجلة مشاركتنا العربية إلى الأمام.

ونشكر لكم على اهتمامكم مع بالغ التقدير.

من صراع الحضارات إلى حوار الثقافات

٢٠٠٣/٩/٧

* يأتي اختيار الثقافة العربية لتكون محور معرض فرانكفورت للكتاب وضيفاً عليه لعام ٢٠٠٤ في غمار الحملات التشويهية الشرسة التي تتعرض لها، لتذكرنا بظروف نشأة معرض فرانكفورت للكتاب في أعقاب الحرب العالمية الثانية التي استهدفت إبرازَ الوجه الثقافي للشعب الألماني تعويضاً عن الهزيمة العسكرية المريعة التي لحقت به.

* وهي لفتة كريمة، يتيح للثقافة العربية الإسلامية فرصة نادرة للتعبير عن نفسها، وعرض صورتها الحقيقية الناصعة في السوق الدولي للثقافة.

ولئن كان للعرب فضل السبق في إقامة الأسواق الثقافية، وكان لهم منذ ما قبل الإسلام سوق عكاظ يحملون إليه قصائدهم ويتبارون في عرضها ونقدها، فإن معرض فرانكفورت للكتاب اليوم يعد عكاظ العالم، تحمل الأمم إليه ثقافاتها، للتعارف والتحاور وتبادل التجارب والأفكار.

* لم يسبق للثقافة العربية الإسلامية أن تعرضت لحملة من التشويه والتسفيه والمطاردة والاختراق كالتي تتعرض لها اليوم.

* لقد ترك انهيار الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة، فراغاً أخلّ بالتوازن الاستراتيجي العالمي، ودفع الغرب للبحث عن آخر يناصبه العداء ويجعل منه الخصم البديل .

* إن لاختيار الغرب للثقافة العربية الإسلامية بديلاً يُمارس معه هوايته في لعبة صراع الحضارات ، -من بين حضارات عديدة رشحها هنتنغتون لشغل هذا المنصب، على الرغم مما تعانيه من ضعف وتخلف -دلالات عدة؛ أهمها تغليب الجانب الإيديولوجي والفكري على الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية والسكانية التي كان يفترض أن توجه نظره إلى الثقافات الصينية واليابانية والهندية وغيرها، مما يدل على عمق تقدير الغرب للطاقة الإيديولوجية الكامنة الفذة التي تنطوي عليها هذه الثقافة.

* ومما ساعد على التعجيل بهذا الاختيار الصراع التاريخي الطويل بين الغرب والإسلام الذي عمقه الاستشراق الغربي من جهة، وصمود الإسلام في وجه الغزو الاستعماري والاستيطاني الحديث من جهة أخرى.

* وجاءت أحداث ١١سبتمبر (إيلول) ٢٠٠١ لتضع الثقافة العربية الإسلامية على تماسٍّ مباشر في المواجهة مع الغرب، وهو ما يمثل أخطر تحدٍّ واختبار لمدى قدرتها على قبول التحدي والخروج من المعركة أكثر عافية وأصلب عوداً.

* ومن المؤكد أن مواجهتها القادمة مع الغرب لن تكون معركة عسكرية، لعدم تكافؤ القوى من جهة، وللمغزى الإيديولوجي الثقافي الذي تم على أساسه اختيار الغرب لها نداً للصراع الحضاري من جهة أخرى.

مما يؤكد أن المواجهة القادمة ستكون معركة ثقافية بحتة، سلاحها الفكر، ومصانعه هي: مراكز الأبحاث، ووسائل الإعلام، ودور النشر. وهي مصانع نظيفة لا تنفث الدخان ولا تلوث الأجواء ولا تقتل الإنسان.

* إن دور النشر في الوطن العربي مدعوة الآن لتكون أكثر وعياً لدورها البارز في المعركة القادمة بوصفها أبرز مصانع الفكر الذي يشكل العتاد الأساسي لهذه المعركة.

* إنني ألمح بوارق النصر في هذه المعركة الثقافية القادمة، على الرغم من كل ما يرتفع في الميدان من ضجيج الطائرات ولهيب القنابل وغبار أقدام جيوش الاحتلال، لثقتي المطلقة بأن التاريخ لا تصنعه القوة مهما تعاظمت، و أن الحضارات لا تبنيها جيوش الاحتلال مهما توغلت، وأن لأمتي تجارب رائدة في هذا المجال ردت فيها الغزاة على أعقابهم أيام الحروب الصليبية، أو امتصتهم وصهرهم في بوتقتها إبان غزو التتار لبغداد.

* إنني ألمح في النظام الدولي الجديد، وانتكاسة الإنسان على أيدي الأمريكان، بارقة الأمل، والفرصة الذهبية السانحة التي لا تتكرر كثيراً في حياة الأمم، والمنعطف التاريخي الكبير الذي تتأهب فيه الإنسانية لاستقبال نظام جديد يقيلها من عثرتها، وينقذ رايتها من السقوط، ويحفظ لها مكتسباتها التي أحرزتها عبر كفاحها المرير، ويواصل السير بها إلى الهدف الإنساني الكبير المنشود، ألا وهو التخلص من الفساد وسفك الدماء.

أبني تفاؤلي، وثقتي بالمستقبل، وجدارة أمتي بحمل الراية من جديد – على الرغم مما تعانيه من عجز وكساح وتخلف وانكسار – على مؤشرات ومرتكزات، أوجزها بما يلي:

١–أن الحضارة الغربية التي بدأتها الحداثة بإرساء حقوق الإنسان وتنصيبه إله نفسه يقرر مصيره بنفسه، انتهت به في (ما بعد الحداثة) إلى القضاء عليه، وأعلنت عدميته وعجز عقلانيته عن إنتاج تصور يتعدى غرائزه الجنسية ولذائذه، وعادت به إلى أصله البهيمي في الغاب، وأحدثت بذلك فراغاً فلسفياً إيديولوجياً واسعاً ينتظر ما يملؤه.

٢–أن ذراعها الأميركي الذي اعتمد القوة المادية معياراً للتقدم البشري، وأعد لها من النظم الإدارية والأدوات التكنولوجية ما بوّأه أعلى مراتب التفوق المادي والعسكري، ثم هوى به إلى حضيض السلم الأخلاقي فأفقده مصداقيته، وراح يجرد الإنسانية من كل مكتسباتها، فأحدث في العالم فراغاً أخلاقياً عبر عن خوائه الروحي، وأكد الحاجة إلى ملء هذا الفراغ.

٣–أن فائض الإنتاج، واللهاث وراء السوق والترويج لثقافة الاستهلاك لتصريفه، قد أفضى بالعالم الجديد إلى الترهل الحضاري الذي تؤكد قوانين التاريخ أنه المقدمة الحتمية لانهيار الحضارات وسقوطها {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا *} [الإسراء: ١٧/١٦] .

٤ – أن أوربة التي أنهكتها الحروب، قد أدركت– بعد خوضها حربين عالميتين مدمرتين في القرن العشـــرين – أن مشكلات الإنسان لا تحلها الحروب بقدر ما تعقدها، وأن الحل الأمثل للمشكلات هو ما ينبثق عن التفـــاوض عـــبر الموائد المستديرة، التي يتم فيها إعمال العقل بدلاً من إعمال اليد، فقد آن للإنسان أن يكف يده، وآن للحـــروب أن تضع أوزارها وآثامها.. وبهذا الإدراك وهذا السمو بالمشاعر الإنسانية أمكن للأوربيين بناء وحدتهم، فكـــان الاتحـــاد الأوربي نموذجاً فريداً شكل منعطفاً كبيراً في مسيرة التقدم البشري .

٥– أن الإنسانية الآن، تنطلق بسرعة مذهلة على جسر العبور بين مرحلتين من مراحل تقدمها، مودّعـــة عصـــر اقتصاد الصناعة، وما أثاره تفاوت أنصبة الأمم في موادها الأولية من نزاعات، إلى اقتصاد المعرفة، وما يوفره تـــوزع مادته الأولية (الفكر) بين الأمم بالتساوي، من فرص متكافئة تجعل سائر الأمم على عتبة سباق واحدة، يفوز فيه من يفكر أكثر، ويبدع أكثر. فالفكر مشاع بين الشعوب ليس فيه أمة هي أربى من أمة.

٦–أن ثقافتنا العربية الإسلامية، تنطوي على أعظم مخزون فكري إنساني فطري منفتح قادر على إحـــلال ثقافـــة حوار الحضارات وتعارفها وتكاملها، محل ثقافة صراع الحضارات وتناكرها وتعارضها وتنافيها، وأنها الثقافـــة الـــتي تؤمن بوحدة الأصل البشري؛ فالكل لآدم، ولا تميز لجنس أو لون أو لسان، كما تؤمن بوحدة الأديان وتقدس جميـــع رسلها وأنبيائها لا تفرق بين أحد منهم، تحج إلى مقام إبراهيم، تتخذ منه قبلة ومصَلى، وتدعو الجميـــع إلى كلمـــة سواءٍ، تنطلق منها لتبني عليها نقاط الوفاق؛ نقطة نقطة، حتى يجتمع للناس منها ما يقنعهم بأن لديهم مما يجمعهم أكثر مما يندسُّ بينهم ليفرقهم. وتدخل في حوارها مع الآخر من دون أي مسلمات مسبقة، لا تتعصب لـــرأي ولا تـــدعي احتكار الحقيقة، وتؤمن بالاختلاف تعده نعمةً ووسيلة للنمو؛ تعتمد على البيان والبينات، تقارع الحجـــة بالحجـــة، وتنصاع للأقوى والأكثر إقناعاً منهما؛تحتكم إلى العقل؛ تعده هبة الله للإنسان، وأمانة لديه ائتمنه عليها. وتحث على العلم، وتنهى عن اتباع مالا يثبت في ميزانه.

٧– ولئن كان واقعنا العربي الإسلامي مزرياً، وخطابنا الفكري قد اعتراه من الصدأ وعلاه من الغبار وأصابه مـــن التحجر والتكلس ما جعله عاجزاً عن إنتاج فكر قادر على إحداث تغيير في الداخل، أو حمل رســـالة إلى الآخـــر في الخارج، فإن وعينا بتخلفنا وإحساسنا بطول أمد عزلتنا مع توفر المادة الأولية بكل نصاعتها وكامل طاقتها الإنتاجيـــة بين أيدينا، بالإضافة إلى التحديات الخطيرة التي نواجهها.. كل ذلك جدير بأن يحفزنا إلى الإقلاع من جديد.. العـــالم كله بحاجة إلى مخزوننا الفكري العظيم، وعجزنا عن استثماره سوف يغري الآخرين بالتنقيب عنه واستثماره كالذي حدث لمخزوننا النفطي{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨/٤٧] .

٨– وإلى أن تفلح الإنسانية في إخماد نيران الفتن والحروب، وتغمد سيوفها، وتدفن أسلحتها النووية والكيميائيـــة والجرثومية، وتعد إنتاجها واقتناءها عاراً وتخلفاً، مهما كان لون منتجيها ومقتنيها، ستظل حاجة المعتـــدى عليـــه إلى السلاح، دفاعاً عن نفسه وماله وعرضه، قائمة، وسيظل الدفاع عن النفس بالقوة حقاً مشروعاً من حقوق الإنســـان المعتدى عليه، يرتقي إلى مرتبة الواجب، ويمنح من يؤديه أوسمة الشرف والنبل والتكريم، مهما بـــالغ في الإرهـــاب، فالإرهاب المدان إنما هو إرهاب العدوان.

تلك هي بعض مرتكزات التفاؤل بمستقبل الثقافة العربية الإسلامية الواعد، وقدرتها على تجاوز المحن.

ومصانع الفكر العربي في دور النشر ومراكز الأبحاث ووسائل الإعلام مدعوة لإعادة إنتـــاج هـــذه المرتكـــزات، وصوغها حكاياتٍ تُقص على الأطفال، وأبحاثاً وروايات يقرؤها ويشاهدها الكبار.

ومعرض فرانكفورت للكتاب عام ٢٠٠٤ فرصة ثمينة قد تمر عقود كثيرة قبل أن تتكرر.

ومسؤولية اتحاد الناشرين العرب كبيرة عن اغتنام هذه الفرصة،والأخذ بيد الناشرين العرب تشجيعاً لهم على مزيد من الإبداع والإنتاج، وترويجاً لأفضل منتجاتهم القادرة على تصحيح الصورة وتنقيتها من الغبش لتبدو على حقيقتها في عيون أبنائها وفي عيون الغرب على السواء.

مقترحات حول دور اتحاد الناشرين العرب

في معرض فرانكفورت

٢٠٠٣/٩/١٠

أولاً – العمل على تحديد دور الاتحاد في الإعداد لهذه المناسبة ومستوى مشاركته في اللجان المنظمـــة وحضـــوره الرسمي في البروتوكول بشكل واضح، وتسمية ممثليه فيها. وهو ما يقع على عاتق رئاسة الاتحاد بحكم علاقاتهـــا مـــع الأطراف المعنية.

ثانياً– تلبية طلبات اللجنة المنظمة لتحديد:

أ– فلسفة المشاركة العربية في معرض فرانكفورت.

ب– الخطوط العريضة لماهية الثقافة العربية.

جـــ– الشعار.

د– ماذا يمكن للعرب أن يقدموا للمناسبة من برامج ونشاطات خلال أيام المعرض؟

هـــ– ماذا يمكن لهم أن يقدموا طوال عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥

ولهذه الفقرات آ–هـــ أقترح إشراك جميع أعضاء الاتحاد ليدلي كل بدلوه في الإجابة بحسب اســـتمارة واضـــحة وموجزة، ثم يجري فرزها واستخلاص زبدتها من قبل لجنة يعينها مجلس الاتحاد.

و– إحصاءات حول النشر في الوطن العربي.

ز– وضع النشر في الوطن العربي.

ولهاتين الفقرتين أقترح تكليف مختصين أكاديميين كالدكتور شعبان خليفة بإعدادهما، ثم النظر في نشرهما من قبـــل الاتحاد أو بعض أعضائه.

ح– ترشيح كتاب ومفكرين ومبدعين للمشاركة في المعرض.

أقترح أن يتم الترشيح على سائر المستويات: بدءاً من الناشر الذي يرشح من يصطحبه من مؤلفيه على نفقته، إلى الاتحاد المحلي، فالاتحاد العام، ثم تتولى اللجنة المشكلة من قبل مجلس الاتحاد التنسيق بين هذه الترشيحات.

ط– صفحة الضيف على الإنترنت.

أقترح تكليف لجنة المعلومات في الاتحاد بالتنسيق مع منظميها، وتزويدهم بأخبار الاتحاد من جهة، وبفتح صفحة موازية على موقع الاتحاد من جهة أخرى. وبحثّ الناشرين الأعضاء الذين لهم مواقع خاصة على الإنترنت أن يقوموا إفرادياً بعمل مشابه.

ثالثاً– ما الذي يمكن للاتحاد أن يقدمه؟

وهو ما أقترح له التالي:

١ً– مشروع ترشيح عشرة كتب للترجمة من العربية ودعم ترجمتها (ورقة مرافقة).

٢ً– مشروع جائزة أفضل كتاب في الجانب الإنساني من الثقافة العربية الإسلامية (ورقة مرافقة).

٣ً– مشروع جائزة أفضل كتاب للأطفال يرسخ ثقافة الحوار وإعمال العقل في أذهانهم.

٤ً– توثيق عرى التعارف والروابط بين الناشرين العرب والناشرين الأجانب.

٥ً– توطيد العلاقة مع المجلات الأجنبية المتخصصة بالتعريف بالكتب وحثها على رصد الكتاب العربي المميز والتعريف به.

٦ً– تنظيم ملتقيات بين الناشرين العرب ونظرائهم الألمان والأوربيين والأميركيين في إطار المعرض وخارجه، لتبادل التجارب والخبرات. (مشروع الملتقى الأول للناشرين العرب في دمشق نموذجاً)

٧ً– إصدار كتيب للتعريف بالناشرين العرب متعدد اللغات ؛ورقياً وإلكترونياً.

٨ً– إصدار أبشورات إعلامية وتعريفية بالناشرين الأعضاء وبالاتحاد وبالثقافة العربية الإسلامية عموماً.

٩ً– الثقافة العربية الإسلامية في ومضات تبرز ملامحها الإنسانية ونهجها الحواري (في شكل لوحات فنية ، وعبارات موجزة باللغات المختلفة).

١٠ً– الإعلان المأجور في وسائل الإعلام بهدف الترويج للمناسبة أبعد من جدران المعرض وساحاته.

١١ً– السمة المميزة لجناح الاتحاد (الديكور الموحد).

١٢ً– مكتب إعلامي وركن استعلامات إلكتروني فعال وأركان استراحة واجتماعات في جناح الاتحاد.

١٣ً– إسناد دور واضح وفعال لكل اتحاد محلي.

١٤ً– إسناد دور واضح وفعال لكل ناشر عضو في الاتحاد(ورقة مرافقة).

١٥ً– إيضاح الفرص المتاحة له في معرض فرانكفورت ومساعدته على استثمارها.

مشروع دعم الاتحاد لترجمة الأعمال المميزة المنشورة إلى اللغات الأخرى

من أجل تعريف أعمق بالثقافة العربية الإسلامية يتبنى الاتحاد برنامجاً لتشجيع الترجمة والنشر باللغات الأخرى، حسب الخطوات التالية:

١ً– يطلب من كل ناشر عضو في الاتحاد أن يزود الأمانة العامة للاتحاد بقائمة مفصلة بما تم نشره لديه من أعمال مميزة تعرِّف بالثقافة العربية الإسلامية وقيمها الإنسانية وآفاقها الحضارية الواعدة؛ من خلال الأنواع الأدبية المختلفة (كتاب فكري، قصة، رواية، شعر، أطفال).

ً٢- تشكل في الاتحاد لجنة اختيار مبدئي لاختيار ما تراه مناسباً من العناوين، تطلب من الناشر تزويدها بنسختين من كل منها.

ً٣- تشكل لجنة تحكيم ثلاثية يختارها مجلس الاتحاد من الأكاديميين المرموقين في اختصاصاتهم.

ً٤- تضع اللجنة معايير وسلّماً للدرجات لاختيار أفضل الكتب القابلة للترجمة، والقادرة على مخاطبة العقل الغربي خاصة والإنساني عامة.

ً٥- تختار لجنة المشروع عشرة كتب مما نال أعلى الدرجات التحكيمية ،موزعة كما يلي: ثلاثة كتب فكريـــة، قصتان، روايتان، ديوان شعر، كتابان للأطفال.

ً٦- تعهد اللجنة إلى متخصصين كبار بإعداد مستخلصات لهذه الكتب، باللغات العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية.

ً٧- تعمد إلى نشر هذه المستخلصات مع التوصيف الببيليوغرافي الكامل لها تحت عنوان المشروع، بالطرق التالية:

١- كتيب فاخر ملون، يوزع في المعرض.

٢ CD -، يوزع في المعرض.

٣- على الإنترنت: في صفحة معرض فرانكفورت، وعلى موقع الاتحاد، وعلى مواقع دور النشر المعنية.

ً٨- يتولى الاتحاد توفير الدعم المالي لترجمة كل كتاب يختاره ناشر أجنبي (غير عربي) معروف بقدرته على التوزيع الواسع: على أن يتم التعاقد على حقوق الطبع بينه وبين الناشر الأصلي المالك لها.

مشروع جائزة أفضل كتاب

يعبر عن الثقافة العربية الإسلامية

بمناسبة انعقاد معرض فرانكفورت للكتاب، وإقامة جناح للناشرين العرب فيه، يعلن اتحاد الناشرين العـــرب عـــن قبول الترشيح لجائزة أفضل كتاب باللغة العربية أو اللغات الأوربية يصور الثقافة العربية الإسلامية بفكرها الشـــامل وتوجهاتها، أو بجانب هام من جوانبها وذلك وفق الشروط الآتية:

١- ألا يكون الكتاب قد طبع أو نشر سابقاً.

٢- ألا يقل حجمه عن ٤٠٠ صفحة بقياس ١٧×٢٥سم (١٠٠.٠٠٠ كلمة).

٣- ألا يكون حاصلاً من قبل على جائزة من أي جهة رسمية أو خاصة.

٤- أن يكون أسلوبه سلساً واضحاً قادراً على مخاطبة الآخر، وقابلاً للترجمة إلى اللغات الأخرى.

٥- أن يعتمد التوثيق المنهجي الدقيق.

٦- أن يصل منه إلى اللجنة المكلفة ثلاث نسخ مرقونة على الحاسب، أو نسخة بالبريد الإلكتـــروني قبـــل يـــوم ٢٠٠٤/١/٣١.

٧- يمنح المؤلف الفائز قيمة الجائزة بحسب مستواها المبين لاحقاً، ويتنازل عن حقوق نشرها إلى اتحاد الناشـــرين العرب بموجب عقد خاص.

٨- يعد اتحاد الناشرين العرب بموجب هذا التنازل مالكاً لحقوق الطبع والنشر يتولاه مباشرة أو يعهد به لناشر آخر.

٩- يجري تحكيم النصوص من قبل لجنة يختارها مجلس الاتحاد من أكاديميين مرموقين محايدين، تضع معاييرها للتحكيم بالتنسيق مع المجلس.

١٠- يمنح المؤلف الفائز جائزة الاتحاد ويتنازل للاتحاد عن حقوق طبعها وترجمتها ونشرها بكل الأوعية وطرق النشر التي يختارها.

١١- تتألف الجائزة من:

١- شهادة موقعة من رئيس الاتحاد.

٢- درع الجائزة.

٣- مكافأة نقدية بمبلغ:

الجائزة الأولى ١٠.٠٠٠ دولار

الجائزة الثانية ٨.٠٠٠ دولار

الجائزة الثالثة ٥.٠٠٠ دولار

١٢- تشفع الأعمال المرسلة بالسيرة الذاتية عن الكاتب.

ملاحظة :

١- يمكن أن تكون الكتب بأحد الأنواع الأدبية التالية: الكتاب الثقافي+ القصة+ الرواية.

٢- لا تعاد النسخ إلى أصحابها سواء فاز العمل أم لم يفز.

الثقافة العربية الإسلامية ضيف الشرف على معرض فرانكفورت للكتاب ٢٠٠٤

بوسنينة يدعوها لبناء حداثتها المطبوعة بطابعها المميز وصادق جلال العظم يعلن موتها ويقيم لها مراسم الدفن في فرانكفورت[(١)]

٢٠٠٣/١٠/١٥

جاء ذلك في المؤتمر الصحفي الذي انعقد في فرانكفورت يوم التاسع من أكتوبر ٢٠٠٣، الذي كان مخصصاً لتقديم ضيف الشرف على المعرض لعام ٢٠٠٤ في سياق الإعداد لإنفاذ الاتفاق المبرم بين الجامعة العربية ممثلة بالسيد المنجي بوسنينة المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) والسيد فولكر نويمان مدير معرض فرانكفورت، حول اختيار الثقافة العربية الإسلامية لتكون هذا الضيف.

أما السيد صادق جلال العظم فقد جيء به لينطق بكلمة المثقفين العرب الذين يتولون رعاية هذه الثقافة العربية الإسلامية وتنمية روح الإبداع فيها .

وقد بدأ هذا المؤتمر الصحفي بكلمة السيد فولكر نويمان رئيس معرض فرانكفورت الذي أعلن أن فكرة تقديم ضيف الشرف تقليد من تقاليد معرض فرانكفورت بدأ منذ عام ١٩٧٦ مع أمريكا اللاتينية واستمر منذ عام ١٩٨٠م

مع إفريقية ومنذ عام ١٩٨٨ ناله عدد من الدول الأوربية والآسيوية والأمريكية وكانت روسية ضيف الشرف عليه لهذا العام ٢٠٠٣ .

ودعا في كلمته إلى بناء جسر بين الثقافتين العربية والغربية عبر مزيد من الترجمات من العربية إلى اللغات الأوربية لمزيد من الفهم المتبادل يؤسس لإزالة سوء الفهم والتحريف والتشويه المتمثل في التعبيرات التي باتت شائعة في أيامنا: تعصب وتزمت ونفط وإرهاب وسلبية تجاه المرأة.

وتساءل نويمان: كيف يمكن تحقيق التفاهم المتبادل إذا لم توجد نسبة كبيرة من الأعمال المترجمة للمفكرين المحدثين المؤثرين في الخطاب لدى كل من الجانبين.

ثم أطلق نداءه الملح إلى زملائه الناشرين الغربيين: ترجموا الأدب من العالم العربي، وابذلوا كل جهد ممكن للوصول إلى القراء عن طريق الترجمات، وأكد أن معرض فرانكفورت يوفر المنبر الذي يسمح بالتعارف بين الثقافات.

ومن هذا التعبير الذي ختم به نويمان كلمته نستطيع أن نفهم الهدف السامي النبيل الذي يرمي إليه معرض فرانكفورت: ألا وهو (التعارف).

وفي إطار التقديم لضيف الشرف ألقى الدكتور المنجي بوسنينة كلمته الجامعة المهمة، ليبرز الدور الكبير الذي قامت به الثقافة العربية في تاريخها المشرف، وما تركته من بصمات في سجل الحضارة الإنسانية، وما تقوم به الآن من محاولات جادة لبناء حداثتها المناسبة لها ضمن سياقها الحضاري ، مستفيدة من عمق تجذرها في التاريخ، ومن تنوعها وسعة انتشارها في الأصقاع، ومن تفاعلها مع الحضارة الإنسانية، مؤكداً على قدرتها على بناء مستقبلها المطبوع بطابعها المتميز .

ويحدد بوسنينة في كلمته الجامعة الخطوط العريضة للثقافة العربية الإسلامية متمثلة: بالكتاب (القرآن الكريم) وما ينطلق منه في حقول الإبداع، وعالم ألف ليلة وليلة، وأدب الحب العذري، والخط العربي، والحياة العربية الحاضرة الموّارة ثقافياً بكل هموم العصر، والإبداع العربي في المهجر، والمرأة العربية اليوم، والفن التشكيلي، وجيل الشباب المتوقد.

ويأتي دور الدكتور صادق جلال العظم ليلقي كلمة المثقفين العرب؛ ويقول كلمة مفيدة عن الثقافة العربية بوصفها ضيف الشرف، الذي اختير في هذه الظروف الصعبة، ربما لإتاحة الفرصة له، لكي يصحح الصورة التي رسمت عنه في الأذهان.

ويمضي المرء مع كلمة الدكتور العظم بانسياب وبحسن نية – بادئ ذي بدء – وهو يقرر أنه لن يتزلق إلى مواضيع تتصل بشعائر خطاب الحادي عشر من سبتمبر، وما يتصل بها من طقوس، وأنه لا ينوي «الوقوع في المطب العربي التقليدي الذي يحول دائماً مثل هذه المناسبات النادرة إلى فرصة لمجرد الاحتفاء بالتراث.. والافتخار بإنجازاته الماضية، وبإعادة تلاوة الدرس المعروف عن أخذ أوربة كل ما عندها اليوم منا وعنا في الأساس، عن ابن رشد وحضارة الأندلس، بالإضافة إلى العلوم العربية المتقدمة بما فيها الفلسفة والرياضيات إلى آخر اللائحة المعروفة».

ويتابع المرء الإصغاء إلى العظم، وهو يتحدث عن الحراك الثقافي والفكري والإبداعي والنقدي العربي اليوم، وعن الجهود المبذولة في «التعامل مع الحداثة التي صنعتها أوربة، والتفاهم حتى التصالح.. والتكيف المجدي مع هذا العالم

الديناميكي الحديث الذي شكلته أوربة، وصاغته بذاتها.. من دون أن تستشير الإسلام أو العرب أو الصينيين أو الهندوس، وفعلت ذلك على حسابهم جميعاً.. وفرضت حداثتها عليهم فرضاً بحكم التفوق الساحق للجبروت الأوربي في كفايته ونجاعة أدائه».

هكذا يمضي المرء مع العظم من دون كبير تململ، فلمعظم هذه الأطروحات ما يسوغها، وإن اختلفت وجهات النظر حولها وحول أسلوب تناولها..

حتى إذا وصل إلى جوهر كلمة العظم ومحورها الأساسي: «لهذا السبب، لم يعد للثقافة العربية الحديثة وللتاريخ العربي المعاصر أي معنى دون الرجوع إلى أوربة والغرب عموماً.. لأن الاختراق الأوربي الحديث للفضاء العربي الحضاري والثقافي التقليدي، أحدث قطيعة حاسمة ونهائية مع تاريخنا السابق ، ولا يمكنني إلا أن أشبه هذه القطيعة بتلك القطيعة المماثلة التي أحدثها الاقتحام العربي الشهير للفضاء الفارسي – الساساني الحضاري والثقافي التقليدي سنة ٦٣٧ ميلادية مع التاريخ السابق لبلاد فارس، وكما أن تاريخ فارس بعد الفتح العربي لم يعد له معنى بمعزل عن العرب.. فإنه لم يعد من معنى كذلك للتاريخ العربي اللاحق على الاختراق الأوربي بمعزل عن أوربة ».

هنا يصحو المتابع لكلمة العظم، لتنتابه الريبة في كل ما سمع ويسمع، ويتهم عقله، أن يكون قد أساء الفهم أو التفسير، ويشرد ذهنه عن بقية السرد..

هل الرجل المكلف بإلقاء كلمة المثقفين العرب، وتقديم الثقافة العربية المستضافة ضيف شرف على معرض فرانكفورت، يعني ما يقول؟ هل هو حقاً يريد قطيعة حاسمة ونهائية مع تاريخنا السابق؟ ربما كان يريد قطيعة مع حقبة التخلف!! لكنه يخصص (مع تاريخنا السابق)، ويضرب المثل بالتفصيل (كما قطعت فارس علاقتها بتاريخها السابق بعد الفتح العربي)، ويؤكد أنه (لم يعد للثقافة العربية الحديثة.. أي معنى دون الرجوع إلى الغرب).

ويواصل المرء بحسن نية بحثه عن المخارج والمسوغات.. أتراه أراد أن يصطنع يداً مع أصدقائه الغربيين، فطمأنهم إلى أن الرجل المريض (الذي لا يزال مريضاً بزعمه)، قد استسلم لقدره، فهو الآن فيما يطلق عليه (صحوة الموت)، واطمأن إلى أن كلمته التي ألقاها بالإنجليزية لن تترجم إلى العربية ولن يقرأها العرب؟!

لكن إدارة المعرض المنظمة لهذه التظاهرة، تعلم أنها لا تتعاقد مع مريض لا يرجى برؤه، أو مع ثقافة شاخت، وفقدت كل عناصر حيويتها وقدرتها على التحديث والتجديد، و لم يعد لديها ما تستطيع تقديمه للبشرية في مجال حوار الحضارات، وعقمت عن إبداع أي شيء مفيد للإنسانية، وأنها إنما تدعوها إلى سوق ثقافي كسوق عكاظ التي كانت لها قبل أكثر من ألف وأربع مئة عام يتبادل الناس فيها إبداعاتهم، ويتنافسون وينتقدون، ويعبرون عن آرائهم بحرية من دون قيود ولا وصايات.

ويمضي المرء في انتحال المسوغات لخطيب المؤتمر الصحفي الممثل للمثقفين العرب: إذا كانت الاتفاقية المبرمة مع الجامعة العربية تنص في مادتها الثانية على أن يضمن ضيف الشرف تقديم عرض يشتمل على طيف واسع من التنوع الثقافي واختلاف الآراء، فلماذا تضيقون واسعاً، وتمنعون الاختلاف؟ لم لا تعدونه وجهة نظر شخصية لإنسان ضاق ذرعاً بحضارته وقيمه وثقافته فولى شطره نحو ما يراه الأرقى والأجدى؟..

غير أنه سرعان ما أجاب عن تساؤله: إننا نرحب بالاختلاف مهما انفرجت زاويته، ونبحث عن المختلف؛ نـــرى فيه مرآتنا التي تكشف عيوبنا، والآخر المكمل لنواقصنا، لكننا لا نتماهى فيه بل نتحاور معه، فإن نحن ذُبنا فيه رجعنا إلى الأحادية، وتوجب علينا أن نبحث عن المختلف من جديد.. إن العظم لم يكن يتكلم في محاضرة تخصه، أو نـــدوة يطرح فيها أفكاره - كما يحلو له -، إنما كان يتحدث من على منبر معدٍّ للتعريف بضيف الشرف، ومؤتمر صـــحفي (هدفه الأساسي هو شرح دور الثقافة العربية والحضارة الإسلامية - حسب المادة الثالثة من الاتفاق المبرم)..

فلئن كانت الثقافة العربية الإسلامية في نظر العظم قد فات أوانها، ويريد أن ينسلخ منها انسلاخاً حاسماً ونهائيـــاً حتى العظم، فلماذا يريدنا أن نتابعه على فهمه، وأن يمثلنا في مؤتمر صحفي يعلن فيه موت ثقافتنا وينعاها؟ ولماذا نساق إلى معرض فرانكفورت؟! ألمجرد أن نحضر مراسم الدفن لثقافتنا؟! ألا يكفي أن يأخذ السيد العظم معه مجموعة ينتقيها ممن هم على شاكلته من اليائسين القانطين من رحمة الله؟!

ولماذا تقودنا الجامعة العربية لمثل هذا المأتم الحزين؟! أكان سراباً كل ما قدمته لنا من وعود، وأغرتنا به من فـــرص للتعبير عن ذاتنا وثقافتنا، وأن نستنشق عبق الحرية الذي يفوح في فرانكفورت؟! أعيذها من ذلك، غير أني لا أعفيهـــا ولا أعفي المنظمين الألمان من هذا الجرح الخطير الذي أصاب كل من كان يعمل بدأب وجد لإنجاح هذه التظـــاهرة الثقافية العربية، فأحبط آمالهم، وأشعرهم أنهم مدعوون إلى فرانكفورت لشهود مراسم إطلاق رصاصة الرحمة علـــى (الرجل المريض - الذي لا يزال مريضاً في نظر السيد العظم) ثم دفنه هناك على الطريقة الإسلامية، بإهالـــة التـــراب عليه، وتسوية قبره بالأرض من دون علامة ولا شاهدة تحمل اسمه، لينبت من جديد هناك.

لكننا واثقون كل الثقة من أنه إن تحقق للعظم وصحبه ظنهم-وما إخاله يتحقق- فسيبزغ هناك من جديد حاملاً هويته وقيمه وتراثه وثقافته، لأنها ثقافة الفطرة الإنسانية، والحضارة الإنسانية الشاملة.

معرض فرانكفورت للكتاب

عكاظ عالم اليوم

٢٠٠٤/٥/١٢

٢١ أسبوعاً ويحين الموعد

إذا كانت لنا قبل ألف وخمس مئة عام سوق عكاظ، يتبارى فيها الشعراء والحكماء والنقاد؛ يدلي كـــل منـــهم بدلوه، يفاخر بشعره ونثره، ويسلق نظراءه ناقداً بألسنة حداد، يهجو ويمدح ويتغزل ويشبب ويفضـــح الســـرقات ويكشف ما استتر من العورات، بينما الناس منهمكون في البيع والشراء وتبادل السلع وعقد الصفقات..

فإن معرض فرانكفورت للكتاب، هو بحق - كما يحلو لي أن أسميه - عكاظ عالم اليوم، مع الفرق الكـــبير بـــين عكاظ البداوة في عصر اقتصاد الرعي والتجارة، وبين عكاظ الحضارة في عصر المعلومات واقتصاد المعرفة.

وعلى الرغم من هذا البون الشاسع من حيث الزمان والرقعة ومحدودية المكان والموضوع، فإن جامعة كبيرة تجمع بينهما، هي حرية الفكر وحرية التعبير عنه، بكل ما تقتضيانه من تعدد في الآراء واختلاف بينها، وتصادم وتحـــاور، ونقد وتفنيد، وبيان ومقارعة، وجدل ومحاجة.

شعوب العالم كلها تحمل ثقافاتها وثمرات أفكارها وإبداعاتها إلى معرض فرانكفورت للكتاب؛ تعرضها، تباهي بها، تسوِّقها، تبادل فيها، تبيع حقوق ترجمتها ونشرها..

لا مجال في معرض فرانكفورت لبيع وشراء الكتاب، إنما هو اطلاع وتعارف وعلاقات وصفقات وندوات ومحاضرات وعروض فنية واحتفالات ثقافية..

ومع ذلك فمعرض فرانكفورت يضيق – على سعته – بالزوار؛ يدفعون لزيارته رسوم الدخول، وينتظمون لذلك في صفوف تحفظ لكل دوره. ومدينة فرانكفورت ذاتها تعيش أيامه الخمسة موسماً سياحياً، عليك أن تحجز لإقامتك فيها قبل عدة أشهر. والمواعيد مع العارضين يجب أن تكون مرتبة مسبقاً، ومن العسير جداً أن تجد لدى أحد منهم متسعاً من الوقت للقاء من دون موعد مسبق.

لِمَ كل هذا التهافت على معرض فرانكفورت للكتاب؟! إنه المنبر الحر، تصغي فيه لكل الآراء، وتستنشق فيه عبق الحرية؛ حرية التعبير، وتستمتع بمشاهد التنوع الثقافي بلا قيود ولا حدود..

لن يمنعك أحد من عرض كتاب، تحت أي ذريعة: سياسية أو إيديولوجية أو اجتماعية أو حتى أخلاقية.. لا رقابة على الكتاب إلا رقابة الضمير {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا *} [الإسراء: ١٧/١٤] .

لا وصاية على القارئ؛ فهو سيد اختياره {} [الشمس: ٩١/٧-١٠] .

هل تزدهر ثقافة أو ينمو إبداع من دون حرية؟!

إن ثقافةً تأخذ قيودُ المنع والحظر والحجر بخناقها، مآلها الذبول والتكلس والفناء.

وإن مجتمعاً يخضع لوصاية الفكر الواحد والرأي الواحد لن ينمو فيه إبداع.

العرب ومعرض فرانكفورت للكتاب

٢٠٠٤/٥/١٩

٢٠أسبوعاً ويحين الموعد

في عام ٢٠٠٣ ضم معرض فرانكفورت للكتاب ٦٦٠٠ ناشراً ينتمون إلى ١٠٢ دولة، عرضوا ٣٣٦.٠٠٠ عنواناً منها ٧٤٠٠٠ إصدار جديد، تهافت لها ٢٨٩٠٠٠ زائر محترف و١٢٠٠٠ صحفي من ٨٠ دولة لتغطية فعاليات هذه التظاهرة الثقافية العالمية.

ما دورنا نحن العرب في هذه التظاهرة؟ ما نصيبنا من العناوين والإصدارات الجديدة؟ ما مستوى الإبداع لدينا؟ ما مدى إسهامنا في الحضارة الإنسانية؟ ماذا نستطيع أن نقدم لها في أزمتها الراهنة؟!

على الصعيد الرسمي، فجَّر اقتراح السيد عمرو موسى إدراج مسألة المشاركة العربية على جدول أعمال القمة، خلافات كانت من بين عوامل إلغاء القمة برمتها؛ فالشأن الثقافي، لا يرقى في نظر السياسيين إلى المستوى الأعلى في اللحظات المصيرية، ولا وقت لديهم يضيعونه في الحديث عنها.

وعلى صعيد المجتمع، يصدر الناشرون العرب سنوياً كتاباً واحداً لكل ربع مليون عربي، مقابل كتاب لكل خمسة آلاف شخص يصدره الناشرون في الغرب وسطياً، بنسبة ٢% لدينا من إصدارات الغرب.

ويبلغ نصيب الطفل العربي أسبوعياً كلمة واحدة وصورة واحدة، مقابل ١٢ مجلة للطفل الأميركي أسبوعياً من مجلات الأطفال.

ويقرأ الإنسان العربي وسطياً لمدة ٦ دقائق في السنة، في حين يقرأ الإنسان الغربي وسطياً المدة ذاتها كل يوم.

فبعد ما شيدنا حضارتنا الوارفة على وقع النداء الرباني {اقْرَأْ} [العلق: ١/٩٦] ، وحملنا راية الحضارة الإنسانية قروناً زخرت بالعلم والمعرفة لم نبخل بهما على كل متعطش إليهما، فقدمنا للبشرية عبر دمشق الأمويين وبغداد العباسيين وقاهرة الفاطميين وعبر الأندلس وسائر العواصم العربية حضارة زاخرة بالعلم والمعرفة.. زاغت أبصارنا عن الكتاب، فانطفأت في أعماقنا جذوة الإبداع، ورحنا ننظم قصائد التمجيد للآباء لنغفو على ترنيماتها، وتتراخى أيدينا عن الراية، ليحملها قوم آخرون.

هل بقي في جعبتنا ما نقدمه للحضارة الإنسانية بعد تخلينا عنها، وإخلادنا إلى الراحة في كهف التخلف قروناً، تقادمت خلالها معارفنا، وتجمدت أفكارنا، وتكلست ثقافاتنا، وتيبست عروقنا، وتحنطت أجسادنا، وفقد ورِقنا (عملتنا) قيمته في الأسواق، فلا نجد من يبادلنا به إلا في سوق التراث الشعبي ومتاحف التاريخ الإنساني؛ نأكل بتراثنا منتجات حضارة لم نسهم فيها، ونستهلك منها ما لا حيلة لنا في إنتاجه؟!

سنذهب إلى فرانكفورت ضيوف شرف على معرضها للكتاب لعام ٢٠٠٤.

ربما أنجدتنا الذاكرة بأسماء علماء أفذاذ أنتجتهم حضارتنا أمثال: الفارابي والخوارزمي وابن رشد وابن خلدون؛ ممن أناروا ظلمة القرون الوسطى، وبددوا جهالتها، وقدموا للحضارة الغربية بذورها وجذورها.

ربما أعاننا الكثيرون من المستشرقين والأصدقاء الغربيين المنصفين أمثال: غوتة وبرناردشو وأوسكر وغوستاف لوبون وزيغريد هونكة، لنرفع أصواتنا مفاخرين بأننا كنا الشعلة الوهاجة التي أضاءت للغرب طريق الحضارة وأثرت في مجرى الأحداث العالمية، ولونت جزءاً كبيراً من خارطة الكون، ومدَّت ثقافتها إلى ما يقرب من ربع سكان المعمورة.

فسيقولون لنا: لِم لَمْ تستضيئوا أنتم بشعلتكم التي أهملتم تزويدها بوقود الإبداع حتى خبا نورها؟! وماذا يغني عنكم تعداد المليار نسمة ونيف إذا كان غثاءً كغثاء السيل؟!

ربما أدركتنا الفصاحة وعدوى الحداثة، فرحنا ندندن بنظريات: روسو وفولتير وديدرو وموليير من رواد الحداثة، وجاك دريدا وليوتار وميشيل فوكو وجان بولديار من رواد ما بعد الحداثة.

فسيقولون لنا: هذه بضاعتنا ردت إلينا فماذا لديكم مما أبدعته قرائحكم أنتم؟!

أغلب ظني أن خطابنا الراهن؛ تقليدياً ماضوياً كان، أم حداثياً مستعاراً، سيكشف لنا في فرانكفورت، عرينا الثقافي، وعوزنا الإبداعي، وسيكون ذلك تحدياً أرجو أن يحفزنا للحفر حول الجذور، والغوص في الأعماق تنقيباً في مخزوننا الفكري الغني، عن القيم الإنسانية القادرة على إحداث تغيير جذري في ذاتنا، ينبثق عن عمليتي تبخير وتقطير، تخلصاننا من شوائبنا وأغلالنا، وتعيداننا إلى نطاق الفعالية التي فقدناها زمناً طويلاً..

فإن كانت استجابتنا على مستوى التحدي الكبير في فرانكفورت، فستكون استضافتنا فيها، نعمة علينا وعلى الإنسانية.. وإن كانت الأخرى فلننتظر قروناً أخرى، قد نخرج فيها من التاريخ الذي لا يرحم الكسالى {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨/٤٧] .

فلنعمل ما بوسعنا لتظاهرة فرانكفورت

٢٠٠٤/٥/٢٦

١٩أسبوعاً ويحين الموعد،ونكون ضيوف شرف على معرض فرانكفورت للكتاب.

هل نقف مع المشككين في دوافع اختيارنا، الرامية إلى كشف عرينا وتخلفنا وإفلاسنا الفكري والحضاري، فنحقق أهدافهم، إن كانت كذلك؟!

هل نجاري المرجفين الذين يريدون أن يستروا نزعاقم القطرية التجزيئية بمزاعم التميز البيئي والثقافي، فنسهم معهم في تمزيق أمتنا بين مشرقي ومغربي، وفقير وغني، وعربي وأعجمي، وفي تحويل الثراء التعددي لثقافتنا الواحدة إلى تناقضات موهومة تقيم بيننا الحواجز وتثير الإحن وتبذر الفتن؟!

هل نسير في ركب الكسالى المتكئين على إرث الآباء، المطمئنين إلى عطاءات الأمس الدابر؟! أم ننضم إلى جوقة الانهزاميين المرتابين في قدرتنا على عرض قيمنا الثقافية المختزنة في ضميرنا وأعماقنا، ننفض عنها الغبار ونزيل الصدأ ونصقل الجوهر، ونقدم للإنسانية زاداً يعينها على تجاوز أزماتها الراهنة، وانتكاساتها التي أودت بمكتسباتها وأفقدتها توازنها؟!

هل بقي لدينا من الوقت ما نضيعه في لَوْك تعلات المتشائمين الذين يضخمون الصغائر، ولا ينظرون إلا إلى القسم الفارغ من الكأس، فلا يرون إلا نقصاً في التمويل، وضعفاً في التحضير، وتقاعساً عن الأداء، وهروباً من الالتزام، ويغفلون طاقات الأمة الكامنة؟!

لا حرج أن نكون قد أضعنا بعض الوقت، إن كنا قد أدركنا قيمة الحدث، والفرصة النادرة التي يجب علينا أن نغتنمها، والوقت القصير الباقي الذي ينبغي ألا نضيعه..

لقد أخذت معالم المشاركة تتوضح، وبدأت العجلة تدور..

فعلى الصعيد الرسمي سوف تعرض نتائج الجهود التي بذلتها اللجان الإشرافية والتنفيذية في المؤتمر الصحفي الكبير الذي سينعقد يوم ٢٠٠٤/٦/٢٥ في فرانكفورت بحسب الجدول الزمني المتفق عليه.

وعلى الصعيد المهني وضع اتحاد الناشرين العرب لمساته الأخيرة خلال الاجتماع الذي عقده وفده في فرانكفورت مع إدارة المعرض، ووجه دعواته للناشرين للإسهام في مشاركة فاعلة لائقة.

ومهما تكن المفاجآت في المؤتمر الصحفي الذي سيعلن فيه الجانب الرسمي عن برامجه – التي ما زال يحيطها بالأسرار، ويستأثر بإدارة دفّة القارب إلى فرانكفورت – فإن المجتمع العربي؛ غير الرسمي الحكومي، وغير المهني المحترف، سوف يثبت عبر أفراده ومؤسساته قدرته على سد الثغرات، وتجاوز العثرات، والقفز فوق الحواجز والعوائق، وترميم كل نواقص التمويل والتحضير والتعبير.

إنني لشديد الثقة بطاقات مجتمعنا العربي، حين تفكك قيودها، وتنفلت من إسارها، وتستنشق عبق الحرية في الهواء الطلق، وتعمل في المناخ الملائم للإبداع..

لقد أوهنت الوصايات السلطوية الأحادية – السياسية منها والإيديولوجية والآبائية – عزيمته، وشلت تفكيره، وعطلت فاعليته، حين اتهمته بالقصور والسفه وقلة التدبير، وأصدرت حكمها بالحجر عليه، ثم أحاطت به من كل جانب، وسدت عليه كل المنافذ، وأعطت نفسها حق التفكير بالنيابة عنه، واختيار ما ينبغي له قراءته، وحجب ما لا يروق لها أن يطلع عليه، وتدبير جميع أموره، واستثمار كل أمواله وممتلكاته، والدفاع عن أرضه وعرضه، تقول له بملء فيها:

دعِ المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

حتى جعلته كالكلِّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتِ بخير.

لكن تعدد الخيارات أمام الإنسان في عصر المعلومات وثورة الاتصالات، فتح له ثقوباً واسعة في أنفاق الظلام؛ أخذ يرى من خلالها النور، ويستنشق النسمات العليلة، فماذا لو وجد نفسه طليقاً خارج الأنفاق؛ يسمع ويرى ويحاور ويناقش، ويغرد خارج السرب في فرانكفورت؟!!!

حوار في فرانكفورت؟!

٢٠٠٤/٦/٢

١٨ أسبوعاً ويحين الموعد

ونتوجه إلى فرانكفورت؛ في أيدينا أغصان الشجرة المباركة؛ زيتونة لا شرقية ولا غربية، وعلى وجوهنا ابتسامة خجلى، تتناسى همومنا، وجراحنا النازفة، وتتجاهل كل مآسينا ومعاناتنا، وبيوتنا المهدمة، وأهلنا المشردين، وأعزاءنا الذين فقدنا، والاتهامات الموجهة إلينا، والسهام المشرعة في صدورنا، ننتحُ من معين قيمنا المختزنة في ضميرنا ووجداننا، ما نرى أنه مشترك إنساني؛ نقدمه كلمة طيبة تنبس بها شفاهنا، وتنطلق بها حناجرنا، نتلمس من خلالها كلمة السواء التي تشكل الأرضية الصالحة للتحاور والتعارف والتفاهم بين الشعوب..

وينبري رهط من قومنا يصرخون في وجوهنا: ما جدوى الحوار؟! وما عساها تنفع الكلمة إزاء قنابل الموت والدمار؟! وماذا يمكن للصوت المبحوح مهما تسلح بقوة الحق أن يفعل في مواجهة الآلة الإعلامية الطاحنة، التي تزيف الحقائق، وتزين الباطل في أعين الناس بوسائطها المتعددة؛ تدعم الصوت بالصورة واللون والحركة، لتقيم الوهم مقام العلم، وتزرع الشك مكان اليقين؟!

ونقول لهذا الرهط المشكك المرتاب: في البدء كان الكلمة، ونداء (اقرأ) ما يزال يصرخ في أعماقنا منذ أن دوى به وحي السماء في غار حراء، والكتاب هو معجزتنا الخالدة من دون سائر المعجزات {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} [العنكبوت: ٥١/٢٩] ، وإيماننا بقوة الكلمة وحتمية انتصارها لا تزعزعه أوهام انتصارات قوة العضلات الزائفة، مهما أمعنت في بطشها وتوهمت الغلبة والتفوق.. فتلك كانت وسيلة الإنسانية إبان طفولتها قبل أن ترتقي مدارج الحضارة، وتتحرر من وحشيتها وهمجيتها، وتهجر وحشة الغاب وشرعته إلى أنس المدنية وشرعة

الحق والعدل والمساواة، ولئن عاودتها نزوة استخدام قوة العضلات والأنياب، فإنما هي وعكة حمى وهلوسة ما تلبث أن تتعافى منها، وانتكاسة ما تلبث أن تتجاوزها..

إن حركة التاريخ لا ترجع إلى وراء، ولا تسير وفق أهواء الطغاة والمستبدين.. وهاكم أوربة التي أنهكتها الصراعات الدموية قروناً، وأشعلت حربين عالميتين في قرن واحد، تدرك أن القوة لا تحل المشكلات بقدر ما تعقدها.. فتلوذ بالحوار، وتصبر نفسها على التفاوض وتبادل الآراء، لتبني اتحادها الأوربي بأناة وروية على أرضية صلبة، فإذا الذي بينها وبينه عداوة كأنه ولي حميم..

ما إخال أوربة – مهما احتدم الخلاف بينها، أو ثارت النزوات والمشكلات – ستلجأ لحل مشكلاتها إلى جحيم الحروب، بعد أن ذاقت نعيم الحوار على موائد التفاوض، وما إخال الوضع الإنساني المأزوم، والهجمة الشرسة التي نعاني من وطأتها ووحشيتها، إلا انتكاسة ألمت بالبشرية عندما فقدت توازنها، إثر انهيار الاتحاد السوفياتي، وتفرد القطب الواحد، الذي راودته أحلام الإمبراطورية، فراح يهدم كل ما بناه الإنسان من مكتسبات وتقدم في تاريخ كفاحه الطويل. ولئن دل فقدان التوازن هذا على شيء فإنما يدل على هشاشة الأسس الفكرية والقيم التي يستند إليها، وحاجة الإنسانية إلى مراجعة قيمها والاستفادة من مخزونها المتراكم عبر القرون، ومن التنوع والتعدد الذي أثرى هذا المخزون بالاحتكاك وتبادل الخبرات بين الشعوب.

وما معرض فرانكفورت للكتاب إلا المنتدى الذي يحتضن هذه المراجعة، ويوفر المناخ الملائم للحوار، بكل ما يزخر به من تعدد وتنوع وحرية في التفكير والتعبير؟!

فهل نحن ذاهبون إلى فرانكفورت للحوار؟!

هل أتقنا فن الحوار وامتلكنا أدواته؟!

وما جدوى الحوار في غمرة الشجار، إلا أن يكون حوار طرشان؟!

الكلمة الطيبة

٢٠٠٤/٦/٩

١٧ أسبوعاً ويحين الموعد

مبادرة الألمان إلى إقامة معرض فرانكفورت للكتاب، فور خروجهم مهدودين من ثاني حرب عالمية طاحنة أشعلوها خلال قرن واحد، دليل واضح على رغبتهم بتقديم وجه آخر بديل للوجه النازي الكالح الذي عاد على الإنسانية كلها بالدمار والخراب.. فما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، حتى لاذت ألمانية بالفكر والثقافة، يلملمان شعثها، وبأسوان جراحها، ويبنيانها من جديد، بلا سلاح ولا تهديد.. وبالفكر والثقافة وحدهما استعادت ألمانية في وقت قصير عافيتها، وبنت اقتصادها الشامخ، وحطمت جدار برلين لترسخ وحدة شعبها في الداخل، ثم لتندمج في المجتمع الأوربي في اتحاد صلب متين.. فإذا الذي بينها وبينه عداوة كأنه وليّ حميم..

وبالفكر والثقافة وحدهما استطاعت أن تقف في وجه المارد الأميركي لتقول له:لا، غير عابئة بتفوقه التكنولوجي؛ العسكري والاقتصادي..

إنها قوة الكلمة؛ و إن سحرها لهو السحر الحلال، الذي يحقق أعظم النتائج وأعمها فائدة في أقصر مــدة وأقــل كلفة، من دون دمار ولا خراب ولا خسارة لأحد..

{} [إبراهيم: ١٤/٢٤-٢٥] .

****

لعل ذهابنا إلى فرانكفورت، وسط هذه المحنة الخانقة – التي أحاطت بنا من كل صوب وألحقت بنا مــن الــذل والهوان ما أخفتَ أصواتنا، وأعجز ألسنتنا عن الصراخ وبثِّ الأنين والشكوى – يتيح لنا فرصة التعبير عــن ذاتنــا، والكشف عن مكنون قيمنا وجوهر ثقافتنا، وإبلاغ قضيتنا إلى العالم:

لسنا طلاب عدوان؛إنما نطلب كف العدوان..

لسنا غزاةً نسطو على الآخرين؛ فنهدد أمنهم، ونخرب بيوتهم، ونشرد أطفالهم، ونسرق متاعهم؛ إنما ننشد الأمــن والسلام لأنفسنا وللآخرين..

لسنا بُداةً نضرب خيامنا في الصحراء، ونرتحل فيها على الإبل بحثاً عن الكلأ والماء، إنما نحن أبناء حضارة كانــت ملء السمع والبصر، وتتطلع إلى استئناف مسيرتها لتسهم بفعالية في تقدم الإنسان..

لسنا أعداءً لأحد، لأن في صميم ثقافتنا وحدة الجنس البشري، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبــيض علــى أسود إلا بالتقوى، ومن التقوى التي استقرت في أعماقنا أن الخلق كلهم عيــال الله، و أن أحبــهم إلى الله أنفعهــم لعياله..

****

لا أخاف في فرانكفورت من ضعف حجتنا، وقلة حيلتنا، وغَوْر ينابيعنا، ونضوب إبداعنا وقلة مواردنا، وجفاف الريق في حلوقنا، وشيخوخة قيمنا وأفكارنا، فأنا مؤمن بأن مخزوننا الفكري معين لا ينضب، وأن قدرته على التجدد والتوالد تجعله في شباب دائم..

كل ما أخشاه هو استحكام الوصايات التي جمدت عقولنا، وكممت أفواهنا، وحجبت أبصارنا وأقعــدتنا عــن الإبداع، ورمت بنا في أوحال التخلف؛ تقليدية كانت هذه الوصايات أم حداثية، سلطوية كانت أم مجتمعية، داخلية كانت أم خارجية.. ولئن امتدت أذرعة هذه الوصايات، لتمنعنا من الاستمتاع بأجواء التعدد والاختلاف، واستنشاق عبير حرية الرأي والتعبير في فرانكفورت، فستكون الطامة الكبرى، وسيختفي بصيص النور الذي لمحناه في نهاية النفق.

النفاثات في العقد

٢٠٠٤/٦/١٦

١٦ أسبوعاً ويحين الموعد لنذهب إلى فرانكفورت

معروف أن النفث في العقد هو فعل السحرة الذي يستهدف شل النشاط الإنساني، وصرفَه عن أهدافه، وتخــدير عقل الإنسان حتى يتصرف كمخبول، ويترنح كسكران، ويُضيع اتجاهه كتائه، ليحرمه أخيراً من قطف ثمار جهــده، فيؤوب من موسم الحصاد صفر اليدين، ولا يعود منه إلا بخفي حنين..

ومعروف كذلك أن فرانكفورت اختارت الثقافة العربية ضيفَ شرف عليها لعام ٢٠٠٤، ضمن برنامجها الذي درجت فيه على استضافة ثقافةٍ إنسانية كل عام، تساعدها بذلك على تقديم نفسها وخصوصياتها للعالم.. أما عن معايير هذا الاختيار، وعن دوافعه في هذه الآونة التي تتعرض فيها الثقافة العربية الإسلامية لأشرس هجمة تجثم على صدرها وتأخذ بخناقها؛ تحاول أن تجهز عليها، وتجتث ثقافتها، وتستبدل قيمها بقيمها، وتحل مفاهيمها محل مفاهيمها، وتروضها على الإذعان لرغباتها ترويضَ السيد لعبده، فلنفترض حسن النية لديها، وأنها تريد إتاحة الفرصة لها للدفاع عن ذاتها..

ويتحرك السحرة المتربصون، يجرجرون حبالهم وعصيهم، يعقدونها على قافية الثقافة المستضافة، ينفثون عليها من تعاويذهم ما يحكمون به عقدها، ويربطون على قلوبها..

لن يفلح سحر الساحر، لأنه مهما تضخم بالوهم فإنه سرعان ما يزول بالوعي وإدراك الحقيقة من جهة. ولأنه مخالف لقوانين الخلق عامة وللفطرة الإنسانية خاصة من جهة أخرى.

فقد أقام الله نظام الكون كله على التنوع والتضاد والتنابذ والتجاذب، فإذا بَرق البصر، وخسف القمر، وجُمع الشمس والقمر اختل توازن الكون وانهار نظامه.

كذلك الإنسان، لم يخلقه الله في مصنع ينتج نسخاً متطابقة، بل كرمه حين خلقه بيديه، وميزه ببصمة خاصة به، ووهبه عقلاً مستقلاً يتلقى المعلومات ويحللها ويعيد تركيبها، مضيفاً إليها ومبدعاً فيها ما يشاء، وجعل مسؤوليته عن إعمال عقله ثمناً لحريته التي ضمنها له بمنع الإكراه، مثلما جعل تعدد الرؤى واختلاف وجهات النظر ثمناً للنمو والإبداع وتوليد الأفكار، فإذا انتفى التعدد، وغاب الاختلاف، وحلت محله ثقافة الرأي الواحد والاتجاه الواحد؛ نضب الإبداع، وعقمت الأفكار، وآلت إلى الشيخوخة فالفناء، وعند ذلك يصبح من الضروري المسارعة إلى دفنها قبل أن تتفسخ وتؤذي الناس بنتنها: {} [هود: ١١/١١٨-١١٩] . فالاختلاف والتنوع هو الأصل، وهو هدف الخلق، واختفاؤه ينذر بالفساد والدمار: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ} [البقرة: ٢/٢٥١] و{لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ} [الحج: ٢٢/٤٠] ، فقبول التعدد حتى في الأديان وبيوت العبادة، ضرورة لصلاح الأرض وتعايش الناس، أما نزوع أحدها للتفرد ونفي الآخر، فسيعود عليه وعلى الآخرين بالهدم والتدمير والخراب.

إن عقدة العقد كلها والمادة الأولية التي يستخدمها السحرة؛ إنما هي الأحادية التي تفرد بها الخالق سبحانه، وترك لمخلوقاته الازدواج والتعدد والتضاد والاختلاف، فلم يسمح لأحد أن يشاركه في وحدانيته، بله أن يدعيها لنفسه من دونه، وأي ادعاء من هذا النوع فإنما هو تهويمة ساحر سوف ينقلب سحره عليه {وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [طه: ٢٠/٦٩] فمن هذا الجذر (وَحَدَ) تنبثق سائر عقد السحرة التي تستهدف إجهاض المشاركة العربية في معرض فرانكفورت، وحرمانها من اغتنام أي فرصة متاحة فيها.

والتوحد مرض نفسي يعتري الإنسان فينكفئ على نفسه منقطعاً عن أي اتصال بالعالم الخارجي، رافضاً أي تكيف معه، يعيش في عالمه الخاص: يضحك ويبكي، ويقف ويمشي، ويصيح ويسكت، من دون أي مؤثر خارجي، فلا تعرف شيئاً عن مؤثراته وردود أفعاله.. فلا بأس أن ندعوه (التوحد) عقدة العقد:

فمن هذه العقد:

- عقدة التجزؤ
- وعقدة التسلط
- وعقدة التثاقف
- وعقدة التمويل
- وعقدة التحضير

عقد يأخذ بعضها برقاب بعض، ينفث السحرة عند كل عقدة منها في أذن ضيف الشرف مربتين على كتفه: عليك ليل طويل فارقد.

هل ستتمكن الثقافة العربية المستضافة في فرانكفورت، أن تحل عقد السحرة، وتفلت من تعاويذهم، وتلقي عليهم عصاها فتلقف ما يأفكون، مثلما فعلت عصا موسى بسحرة فرعون؟!

أثق بقدرتها على تجاوز كل العقد والكوابيس!!

الوسواس الخناس

٢٠٠٤/٦/٢٣

١٥ أسبوعاً ويحين موعدنا مع معرض فرانكفورت

كلما انتظمت الثقافة العربية في صف واحد، يرصه ويقوي لحمته تاريخ واحد، وقيم ومبادئ وآلام وآمال واحدة، وينطق بلسان واحد.. نفث سحرة فرعون في وجهه عقدة التجزؤ والتشرذم، وألقى الوسواس الخناس في روعه نوازع الفرقة والتخاصم والتباعد، ودعاه بدعاوى الجاهلية والبداوة؛ قارية وقومية وقطرية وعرقية، ليمزقه إرباً بين إفريقي وآسيوي، ومشرقي ومغربي، ومصري ولبناني، وعربي وأعجمي؟!

وعلى الرغم من سعادته برؤية العالم العربي مقطع الأوصال سياسياً، فاقداً لكل مشاعر النجدة والوفاء لإخوانه اجتماعياً، فإنه لا تروق له رؤيته متحداً ثقافياً، يمضي إلى فرانكفورت تحت راية عربية واحدة.. لا بد أن يتحرك فينزغ بين الإخوة، يثير بينهم الفتن، ويوغر الصدور، وينمي عند كل منهم مشاعر التفرد والتوحد، ويضخم لدى كل منهم الأنا حتى تنتفخ أوداجه وينأى بنفسه عن إخوانه، تملؤه نشوة الغرور، لا يدري أنه قد وقع في الفخ، وأنه لا بد مأكول، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

هكذا يزين الشيطان للعرب الفرقة عشية سفرهم إلى فرانكفورت، فمنهم من يقاطع، ومنهم من لا يبالي، ومنهم من لا يسهم ولا يدلي في المشاركة بدلو.

وهكذا ينقلب ثراء التنوع في الثقافة العربية الذي يبهر الغربيين، مبعث تفتت وتنازع وتدابر، وتنقلب سماتها الحضارية وارفة الظلال إلى صحراء قاحلة تكسوها الرمال، وتذروها الرياح من كل جانب لتنكشف عن أشواك هنا وشجيرات هناك، يقتلها الظمأ، تصبر نفسها على شظف العيش ووحشة العزلة ونأي الخلان، تشبثاً بالحياة، فتلغي بذلك هدف التعارف والتفاهم والتكامل الذي من أجله جعل الله الناس شعوباً وقبائل.

{} [الناس: ١١٤/١-٤] .

{} [المؤمنون: ٢٣/٩٧-٩٨] .

ثقافة السلطة وثقافة المجتمع

٢٠٠٤/٦/٣٠

١٤ أسبوعاً ويحين موعدنا مع معرض فرانكفورت

الأصل أن الثقافة العربية المستضافة هي ثقافة المجتمع، بكل ما تزخر به من تراث وعادات وتقاليد وقيم وأخــلاق، استقرت في ضميره، وطبعت سلوك أفراده وتصرفاتهم، وضبطت نشاطاتهم وإبداعاتهم، وخصتهم بخصائص ميزتهم عن الثقافات الأخرى، تعبر عنها فنونهم، واحتفالاتهم، وقصصهم وحكاياتهم، وسائر مظاهر حياتهم..

ودوْر السلطة، محلية كانت أو إقليمية، إنما يتمثل في مساعدة هذا المجتمع بكل عناصره، وأطيافــه، وتوجهاتــه، وتياراته على التعبير عن ذواتها. وكلما توسعت أشكال التعبير، وتعددت مصادره، وتنوعت اتجاهاته، وتباينت ألوانه، كلما كبرت ثقافة المجتمع المستضاف في أعين الناس، وارتفعت درجاتها في أنظار المحكمين.

فإذا تجاوزت السلطة دورها، واختزلت ثقافة المجتمع بثقافة السلطة، بكل ما يتفرع عنها من مسميات، ويتبعها من وزارات معنية، وجهات رسمية، ومؤسسات حكومية ومنظمات ثقافية، وهيئات للقطاع العــام، وأقصــت المجتمــع وهمشته لتحل - بكل (بيروقراطيتها وروتينها) ومحدودية تفكيرها ورتابة عملها - محله، فإنها تكون قــد اســتأثرت بالأمر من دونه، وتحولت بذلك إلى ثقافة تسلط ؛ أو إلى وصية على ثقافة قاصرة، في أحسن الفرضيات، وتلك عقدة من أهم العقد التي ينفثها السحرة لحرمان الثقافة العربية من استثمار الفرصة المتاحة لها في فرانكفورت.

والسلطة الوصية غالباً ما تلجأ إلى تسويق أسماء مثقفيها والدائرين في فلكها، مضيفة إليهم بضعة أسماء من خــارج الجوقة، ربما لذر الرماد في العيون، ورد الاتهامات وإسكات الألسنة، وادعاء تحقيق التنوع والتعدد، ولو كــان علــى طريقة التدرج اللوني من فصيلة لونية واحدة، أو على طريقة رش أنواع من البهارات الحارة على أطباق الطعام بنسبة ضئيلة جداً لتعديل النكهة..

ولهذه العقدة عقدة شقيقة موازية لها، لا تقل عنها أهمية، هي عقدة المثقف المتثاقف، سنفرد لها مقالاً خاصاً بهــا، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أنهما تتحدان في معاناتهما لداء (التوحد) المستعصي على العلاج إلا من رحم ربك، فلكــل منهما فلكه الذي يدور فيه، وعالمه الذي يعيش ضمنه، منعزلاً عن العالم الخارجي، رافضاً إياه، ملغياً لوجوده، كأن لم يكن..

فما على الآخر من مؤسسات المجتمع الأهلي (غير الحكومي)، إلا الاندماج في مشروعها الســلطوي، والإذعــان لأوامرها، التي تحيطها بالأسوار والأستار بوصفها من الأسرار التي يحرم تسريبها والكشف عنها، بانتظــار المواعيــد المبرمجة للمؤتمرات الصحفية، التي من حقها وحدها أن تكشف المستور، وما تم ترتيبــه في الجلســات المغلقــة وراء الكواليس..

أية ثقافة هذه التي لا تتم (فبركتها) إلا من وراء الكواليس؟!

لعمري، لئن صدق المجتمع المستضاف في فرانكفورت دعاوى اللجان السلطوية، ووضع نفسه تحت وصاية رجالها وموظفيها، وأعفى نفسه من القيام بأي مبادرة يمليها عليه الواجب، باستطاعته أن يقوم بها، فإنه سوف يكون مثــل

قوم فرعون حين قال لهم – مستخفاً بهم وبقدراتهم العقلية –: أنا ربكم الأعلى، وما علمت لكم من إلــه غــيري، فصدقوه وألهوه وأطاعوه!!

أما إذا أعملوا فكرهم في سد الثغرات وملء الفجوات واستكمال النواقص التي أهملتها لجان السلطة، وحشــدوا طاقاتهم وإمكاناتهم لاستثمار كل الفرص المتاحة، فسيكون عملهم أداءً لواجب لا يقوى أحد على منعهم من أدائــه، وسيكون موضع كل تقدير وإعجاب، خاصة من المنظمين الألمان الذين لا يحترمون ثقافة الســلطة والتفــرد، قــدر احترامهم لثقافة المجتمع والتعدد.

وإن معرض فرانكفورت لامتحان عصيب، إما أن تثبت فيه الثقافة العربية رشدها وأهليتها لممارسة دورها الفاعل، مستقلة أو متعاونة، وإما أن تثبت كلالتها وقصورها الذي يستدعي فرض الوصاية وتعيين الأوصياء عليهــا، ســواءً بالأصالة أو بالوكالة!!

المثقف والمتثاقف

٢٠٠٤/٧/٧

١٣ أسبوعاً ويحين موعدنا مع معرض فرانكفورت

الخلط بين مفهومي الثقافة والعلم، أدى في البداية إلى إطلاق تعبير المثقف على كل متعلم، ثم بدا لمروجي المصطلح أنه بهذا المعنى فضفاض لا بد من تضييقه، فأخذوا يحذفون منه ويضيفون إليه ما يجعله على قدر قاماتهم، حتى انتهى به الأمر إلى أن لا يطلق إلا على المبدع والحداثي، وبالتفصيل الممل لمفهومي الإبداع والحداثة، مــن أجــل أن يكــون مصطلحاً جامعاً مانعاً، يجمع إليه كل من تنطبق عليه شروطهم، وينفي عنه كل من لا يستحوذ على هذه الشروط.. وهنا تبدأ العقدة الوليدة، عقدة المتثاقف الذي يحاول تحقيق شروط مروجي المصطلح وكسب رضــاهم لإدخالــه في عالمهم..

وعلى رأس قائمة الشروط، يأتي الانسلاخ من تراث الأمة حتى العظم، وتحقيق قطيعة حاسمة ونهائية مع تاريخهــا، وتمثل الحداثة الغربية بكل تجلياتها ورموزها وإيقاعاتها وصولاً إلى ما بعد الحداثة، وأن يرطن المتثاقف بلغة هجين مختلفة عن لغة قومه، وأن يسفه قيم أمته وينتقد مسلماتها ويتطاول على مقدساتها.. وكل ذلك شروط لا يمكن التسامح فيها أو التنازل عن شيء منها، حتى إن تراجع حامل اللقب عن بعضها، إدراكاً منه لحقيقة كــان قــد ســها عنــها، أو تصحيحاً لخطأ كان قد وقع فيه، لا يغتفر له، بل ويخرجه من الملة (ملة الحداثة)، مهما كانت قدمه راســخة فيهــا.. وبهذه الصرامة في تطبيق الشروط، خيِّل لمروجي مصطلح الثقافة والمثقفين، أنهم يحافظون على احتكار المصطلح وتميز حاملي لقبه، وخصوصية منتدياته، ونخبوية أعضائها، فلا يسمح لأحد أن يتقحم عليهم فيها..

لست معنياً في مقالتي هذه بتفنيد المصطلح وتبيان خطئه فالعلم في نظري شيء والثقافة شيء آخر يشــمل جميــع العادات والتقاليد والأفكار والقيم المستقرة في ضمير الأمة، والتي تطبع سلوكها وتحكم تصرفاتها وردود أفعالها.. فهي بهذا المعنى لقب يحمله كل فرد من أفراد الأمة، ورضع من لبانها؛ متعلماً كان أو غير متعلم، بمن فيهم محتكرو المصطلح والمروجون له..

ولست بالذي ينكر عليهم حقهم في التعبير عن أفكارهم مهما ظهر من شططها وغلوها، فأنا أومن بحرية التفكير، وأرفض كل إكراه أو حجر أو قمع أو إسكات يمنع الإنسان من ممارسة حقه في التعبير عن رأيه..

ما أنكره عليهم:

١-أحادية الرأي، واحتكار الحقيقة، وإلغاء الآخر، وإقصاؤه، وإيصاد الأبواب دونه، وإغلاق منابر التعبير عن الرأي في وجهه، والتسفيه المسبق لأفكاره، وتهميشه والاستخفاف به.

٢-النخبوية، والترفع، والاستعلاء، والتميز، وتضخيم الذات.

٣-الانفصال عن الحياة العامة، والعيش في أبراج عاجية تحجبهم عن الشعور بمعاناة الناس وهمومهم، والاستغناء بالنظر عن العمل، حتى لتستطيع أن تطلق على نظرياتهم تعبير أفكار المقاهي وهي الأمكنة التي اعتادوا على تداولها فيها، بين نفثات السيجار وقرقعة النراجيل، وحسو المشروبات، من دون أن ترى لها أثراً يذكر على أرض الواقع، وفي الميدان.

٤-الانفصام بين الفكر والتطبيق، وبين القول والعمل، فقليلاً ما تجد أحداً منهم يعيش أفكاره ويلتزم بما يطالب الناس أن يلتزموا به، ويمتنع عما يعيبه عليهم.

٥-الانسلاخ من الجذور الثقافية للأمة، والالتحاق بقيم الحضارة الغربية، من دون أي اعتبار للسياق الحضاري، والمناخ الملائم، والجذور والبيئة وضرورات التكيف.

٦-إلغاء دور التجربة، والإصرار على مواقفهم التي عانت الأمة مرارة نجاحها في تحقيق أشنع الهزائم والانكسارات فضلاً عن إخفاقها في تحقيق أي تقدم يذكر خلال ما يزيد عن نصف قرن من التجارب المريرة لنظرياتهم الهجينة.

إن الطرف الآخر التقليدي (غير الحداثي) من مفكري الثقافة العربية الإسلامية، قد لا يكون أقل أحادية وإعجاباً بالذات، ونفياً للآخر، ورفضاً للحوار معه، وامتلاكاً لأدوات هذا الحوار، فهو غالباً ما زال يعيش في صوامعه، مستغرقاً في تأملاته، ماضوياً في خطابه، مدبراً غير مقبل، منفعلاً غير فاعل، ينتظر ظهور مهدي آخر الزمان، ليصلح العالم ويقضي على الفساد في الأرض.

ما تحتاج إليه الثقافة العربية في فرانكفورت، نمط آخر من المفكرين، واعٍ لثقافة أمته، ولمخزونها الفكري والقيمي العظيم، ولموقعها الراهن على الخط البياني لدورتها الحضارية، مدرك للنبض الثقافي والحضاري العالمي، ولحاجة الإنسانية الماسة إليه في أزمتها الفلسفية والأخلاقية الراهنة.

لا أحسب أن التحالف الوثيق القائم بين مثقفي السلطة ومحترفي الثقافة سيسمح لمثل هذا النمط بحضور فاعل ومؤثر في فرانكفورت، وستشهد على ذلك قوائمهم الحافلة برموز الحداثة وبعض رموز الإسلام المستنير بنسبة لا تكاد تذكر.

وما على المجتمع، إذا كان حريصاً على الحيلولة دون مزيد من التشويه والتزييف لثقافته، إلا أن يحزم أمره، ويضع برامجه، معتمداً على نفسه وعلى إمكاناته التي أجزم أنها أكبر وأجدى على الثقافة من الإمكانات الرسمية، لأنها منبعثة من إيمان وإرادة، وتلك الرسمية إمكانات سيأكلها الروتين والبيروقراطية مهما تعاظمت.

عرس الثقافة العربية الإسلامية

في فرانكفورت
٢٠٠٤/٧/١٤
اثنا عشر أسبوعاً،

تُزف الثقافة العربية الإسلامية بعدها إلى العالم الغربي، في احتفالات بهيجة يجري التحضير لهـــا هنـــا، وهنـــاك في فرانكفورت،تستمر خمسة أيام متصلة، وفي أيام متفرقة بعدها على مدى عام كامل.. وسيقدم للعروس خلال هـــذه الفترة أصناف من المنشطات والمقويات، تأتي على ما أصابها من وهن، كالذي يقدم لمعتقلي غوانتانامو المعزولين عـــن العالم إذا أريد الإفراج عن أحدهم، أو كالذي يقدم لسجناء أبي غريب للتعفية على آثار ما تعرضوا لـــه، ولســـوف تُجرى للعروس عمليات التجميل اللازمة، ثم توضع لها لمسات التزيين (الماكياج) الأخيرة، لتحلُـــوَ لعروســـها ليلـــة الزفاف.

وها قد أميط اللثام في المؤتمر الصحفي المنعقد في فرانكفورت يوم ٢٥ حزيران (يونيو) الفائت، عـــن الترتيبـــات المتخذة والبرامج المعدة:

معارض ومحاضرات وندوات، وقراءات أدبية، وأمسيات شعرية، وأفلام سينمائية، وفنون تطبيقيـــة وتشـــكيلية، وموسيقى وغناء ومسرح، ورقص شعبي وآخر حديث، وصور ورسوم وكاريكاتير، ومقهى ثقافي، يصحب ذلك كله استضافة زهاء مئتي مفكر وأديب وشاعر وروائي وناقد وفنان، ليزفوا عروسهم في فرانكفورت.

كل ذلك جميل، ويحسب للجهات الرسمية المنظمة، وتشكر عليه، إذا كان المقصود منـــه زف العـــروس العربيـــة لعروسها الغربي على الطريقة الشرقية، وتزويدُها بالنصائح اللازمة لكي تستطيع أن تتكيف معه، وتتطبـــع بطبائعـــه، وتتبنى أفكاره، وتميل مع ميوله..

أما إذا كان هدف المشاركة العربية في فرانكفورت شيئاً آخر غير الالتحاق ببيت الزوجيـــة، والانـــدماج فيـــه، وكانت الثقافة العربية الإسلامية ذاهبة إلى فرانكفورت لتعرض ذاتها وقيمها وفكرها وفنها وإبداعاتها على حقيقتـــها، من دون تجميل ولا (مكياج)، وتصغي إلى الآخر الغربي، تناقشه وتحاوره، وتبادله الرأي، في حوار تفاعلي وتكاملي، من دون انطباعات ولا مسلمات مسبقة.. إذا كان الهدف كذلك فإن الأمر يختلف.

وما أميط عنه اللثام، وخاصة ما يتعلق بالأسماء المختارة لتمثيل الثقافة العربية في فرانكفورت، إنما يصلح لتحقيـــق الهدف الأول المتمثل في براءتها من حولها وقوتها، وتجردها من هويتها وذاتيتها، لتيسير التحاقها بالغرب وثقافته، فيما يشبه الزفة أو (العراضة الشامية)، تديرها جوقة بلباس موحد، ونغمة منسجمة ليس فيها صوت نشاز، ولا مجال معها للحوار،لانتفاء التنوع والتعدد، لا أقصد التنوع الجغرافي، فخلل التوزيع فيه لا يعنيني، والثقافة العربيـــة الإســـلامية لا تعترف بحدود، إنما أقصد التعدد والتنوع الفكري والإيديولوجي، فالإخلال به ينسف غرض المشاركة برمته..

فمن بين مئة وخمسة وخمسين رجلاً مدعوين لفرانكفورت لا يوجد من رموز الفكر الإسلامي المستنير، الأجـــدر بتمثيل الثقافة العربية وقيمها، سوى حفنة لا تبلغ عدد أصابع اليدين.

أما في الجانب النسوي، فمن بين سبعة وخمسين امرأة مدعوة، لا توجد امرأة واحدة من هذه الرموز، وهي رموز ثرة كفية وفيرة تملأ العين، واستبعادها وإقصاؤها في مثل هذه الظروف التي تستدعي حضورها؛يثير الشكوك والتساؤلات!!

لماذا نحن ذاهبون إلى فرانكفورت؟

هل نحن ذاهبون طلباً لصك غفران عن ذنب لم نرتكبه، ولا أيدينا هي التي أوكته، ولا أفواهنا هي التي نفخت فيه؟!

هل نحن ذاهبون لنقدم اعتذاراً عن تلكئنا في الالتحاق بقيم الحضارة الغربية، بوصفها النهاية التي آل إليها التاريخ، فكانت آخر ما اكتشفه الإنسان من النظم لإنهاء التنوع والتضاد والتدافع بين الأمم والثقافات والحضارات؟!

هل نحن ذاهبون لإعلان توبتنا، وقطع كل علاقاتنا مع تاريخنا السابق، وحرق كل المراحل لتمثُّل فلسفة الغرب لـ (ما بعد الحداثة)، بعد أن أخفقنا في تمثُّل حداثته المجتثة من تربتها وبيئتها ومناخها لتغرس في تربتنا، ولم نستطع أن نكيفها مع بيئتنا، ونزيل من أمامها كل عوائق نموها فينا؟!

لست بالذي يتهم كل المدعوين بأنهم على هذه الشاكلة، على الرغم من أن فيهم من صرح بها في المؤتمر الصحفي؛ الذي انعقد في فرانكفورت يوم ٢٠٠٣/١٠/٩، وكان مخصصاً للتعريف بضيف الشرف القادم (العالم العربي)، فأكد الدكتور صادق جلال العظم يومها، وكان يتحدث باسم المفكرين العرب، أن علينا لكي نلحق بركب الحداثة أن نحقق "قطيعة حاسمة ونهائية مع تاريخنا السابق" ..

ولست بالذي يرفض وجودهم على مائدة أي حوار، فهم طيف مهم من أطياف الفكر العربي المعاصر، يمتلك رؤى ووجهات نظر، تحرك ساحتنا الثقافية الراكدة، وتشكل حافزاً قوياً لمراجعة الذات والتغيير..

ما أرفضه أن تزيد نسبتهم في وفد الثقافة العربية الإسلامية إلى فرانكفورت عن ٩٠% وتبلغ في النساء ٩٩.٩٦%.

أليس هذا هو الإقصاء بعينه، الذي تعودناه على يد تحالف مثقفي السلطة ومحترفي الثقافة، خففوه هذه المرة باختيار ما لا يزيد عن ٥% من رجال التيار الإسلامي المستنير، ولم يطيقوا اختيار أيٍّ من رموز هذا التيار في الجانب النسوي؟!

إن الذين تزدري أعينكم، هم المعنيون الحقيقيون بمعرض فرانكفورت، وهم المتخصصون في فهم الثقافة العربية الإسلامية وقيمها الإنسانية وتوجهاتها المستقبلية، وهم المؤمنون بحق الاختلاف، وحرية الرأي، وضرورات الحوار، يبحثون عن الآخر المختلف، وسيلة لتنمية أفكارهم، وتصويبها، وتكاملها، ومن دونهم لن يكون للمشاركة العربية، في فرانكفورت معنى ولا جدوى..

ولئن سبق السيف العذل – على المستوى الرسمي –وأميط اللثام متأخراً عما تم إعداده في مطبخ التحضير، فإن الوقت قد حان – على المستوى الشعبي – ليقوم المجتمع بدوره الفاعل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في فرانكفورت، حفظاً لماء الوجه، واغتناماً لفرصة فرانكفورت كيلا تضيع سدى.

وبوسع المجتمع – الذي طال أمد إقصائه عن الفعل المجتمعي، غير الرسمي– أن يصنع الكثير. وتجاربُهُ الرائعة، في كل مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتربوية، يوم أن كان الشعب والسلطة يدان متعاونتان؛ لا تزال في الذاكرة.

وإنه لقادر على توفير كل الموارد المالية والبشرية لتحقيق التوازن والتنوع المنشود في فرانكفورت، استكمالاً لما أهملته السلطة، وإحضاراً لما استبعدته..

لم يبق لدينا، قبل فوات الأوان، إلا هذا الرهان...

من مبضع الجراح
إلى معرض فرانكفورت
٢٠٠٤/٧/٢١
١١ أسبوعاً قبل المعرض

حدثني شاب عن والده ذي الثمانين عاماً، كيف هرب من المشفى فراراً من مبضع الجراح، متوارياً عن أنظار الأهل والممرضات، بعد أن نزع عن يده أنابيب أدوية تحضيره لعملية جراحية قررها الأطباء، وغادر سريره متظاهراً بالرغبة في مشي قصير خارج غرفته، قاده إلى مصيف ريفي جميل، استرخى فيه أياماً، قبل أن يتصل بأهله؛ يطمئنهم عن صحته وعافيته التي تمكن من استعادتها ذاتياً من دون جراحة ولا تخدير، ويؤكد لهم أنه أدرى بعلّته من الجراح ..

ذكرني حديث الشاب بالثقافة العربية الإسلامية، كيف ستتمكن من الهرب إلى فرانكفورت؛ تواعدها جهاراً نهاراً علناً على رؤوس الأشهاد، أنها قادمة إليها بعد أسابيع، والجراح الأميركي ذو الشهرة والخبرة الواسعة، منهمك في إعمال مبضعه في كشط جلدها، وربط شرايينها وأوردتها، والكشف عن باطنها، بعد عمليات تخدير معقدة أجراها لها بسبب كثرة الأمراض والعلل المضادة والحساسيات المفرطة لديها، حتى إذا اطمأن إلى أنها قد استجابت تماماً لمخدراته، وأضحت كعجينة لينة بين يديه يقلبها ويصوغها كيف يشاء يستأصل من جسدها ويزرع فيه ويضيف إليه كما يريد، بدا له أن ينفذ بمسباره إلى دماغها الذي يختزن المعلومات المتراكمة لديها عبر الأجيال، والتي تشكل روافدها وتضبط سلوكها وردود أفعالها، فيقوم بعملية غسيل سريعة، كفيلة بتغيير جميع مسلماتها وقيمها وثوابتها، حتى إذا زال أثر المخدر عن المريض، وأمضى فترة نقاهته تحت إشراف أطبائه المهرة، يروضونه لاستئناف حياة جديدة، عاد خلقاً آخر، يقبل بحماس ما كان يرفضه، ويحب بشغف ما كان يكرهه، ويصادق بمودة من كان يعاديه ..

أما أجيالها القادمة فإن الهندسة الوراثية وعمليات الاستنساخ البشري كفيلة بإنتاج ثقافات هجينة، مصنوعة بتقنيات عالية، في مداجن تنتجها بمواصفات موحدة حسب الطلب، على غير هيئة الإنسان الذي خلقه الله بيديه، ووفر له من التميز والخصوصية والتعدد والتنوع، ما يكفل له التقدم نحو الأسمى والأفضل، ويمكنه من إحباط المخطط الذي يقوده التفرد الأميركي في العالم، تنفيذاً للتحدي الذي رواه لنا القرآن الكريم على لسان الشيطان: {} [النساء: ١١٨/٤-١٢٠] .

وحسب هذا المخطط الذي يجري تنفيذه بدقة وعناية فائقة، لإحداث تغيير جذري في الثقافة العربية الإسلامية؛ يجتث مبادئها وقيمها وكتابها ولغتها، والذي وُضع له جدول زمني لا يتجاوز العقدين من الزمان برأيهم، يقوم المريض، الذي ما يزال في غيبوبته تحت تأثير المخدر، بتنفيذ كل ما يطلب منه من تغيير في مناهجه التعليمية، واستبعاد لكثير من الآيات القرآنية في مواده التدريسية، واستبدال مادة الأخلاق بمادة التربية الدينية، واستبدال اللغة الإنجليزية باللغة العربية في تدريس المواد العلمية، وإعلانه عجز لغته وخجله منها بعد أن كان يعتز بها، وإغلاق مراكزه الثقافية في أنحاء العالم، وفتح أبوابه على مصراعيها لاستقبال المراكز الأجنبية الثقافية وغير الثقافية في عقر داره، وتحويل طاقاته من إبداع الإنتاج إلى نهم الاستهلاك، وإزالة كل القيود التي تعيق تدفق السلع الأجنبية لإشباع نهمه، حتى إذا صحا من أثر المخدر كان على أتم الاستعداد للمضي قدماً في تنفيذ ما بقي من المخطط الذي يستهدف استئصال لغته وقيمه ودينه وسائر قدراته: استبدال الحرف اللاتيني بحرفه العربي، تسكين أواخر الكلم تمهيداً للاستغناء عن قواعد اللغة، إيجاد بدائل لحركات التشكيل، الفتحة والضمة والكسرة، وتشجيع العاميات الدارجة بديلاً عن الفصحى، فصل اللغة العربية عن القرآن بذريعة تطويرها بعيداً عنه، إحاطة القرآن بهالة من القداسة تجمده وتقصيه عن الحياة والتطبيق العملي، ليصبح شكلاً مفرغاً يمهد لإحلال فرقان جديد محله، ينهمكون بإعداده ليتولى شرح المضامين ..

ولسوف يدندنون له صباح مساء بشعارات: الإصلاح، والتحديث، والعولمة، وحرية التجارة العالمية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والخصخصة، والمجتمع المدني، وحوار الحضارات، وكلها كلمات حق أريد بها باطل، يقذفون بها عبر وسائل إعلامهم، مع التلويح بالعصا الطويلة عبر آلتهم العسكرية الطاحنة الجاثمة على الصدور، فأية حرية تلك!! وأي حوار يجري بين طرفين لكن باتجاه واحد!!

تُرى هل ستُحمل الثقافة العربية الإسلامية إلى فرانكفورت، وهي ما تزال تحت تأثير المخدر؟! أم ستذهب إليها وهي في مراحل الإنعاش تستكمل فيها نقاهتها، وتتابع تمارين ترويضها، وتردد فيها ما لقنها أطباؤها؟!

أم تُراها ستتمكن من الإفلات من مبضع الجراح، كما أفلت والد صديقي الشاب، تسترد عافيتها بوسائلها الخاصة ومناعتها الذاتية، تفر بدينها من الفتن، لتعبر عن نفسها بلسانها، وتعرض ذاتها وقيمها على سجيتها، من دون مؤثرات تخدير ولا عمليات تجميل؟!

مسيرتنا الثقافية إلى فرانكفورت

٢٠٠٤/٧/٢٨

١٠ أسابيع قبل المعرض

معظم الناس ينظرون إلى معرض فرانكفورت بوصفه معرضاً مهنياً يهم المعنيين بشؤون الكتاب، نشراً وتوزيعاً وتسويقاً للحقوق الفكرية، وبالتالي فإن استضافة الثقافة العربية الإسلامية فيه، تخص هؤلاء المعنيين، مثل أي معرض للمنتجات الغذائية أو الكسائية أو الكهربائية أو الإلكترونية.

وأنا أتصوره مسيرة ثقافية كبرى، ينضم إليها كل أولئك الذين زُج بثقافتهم في قفص الاتهام، ثم أدينت بتهمه الهوس الفكري، ودُفع بها إلى مصحات العيادة النفسية، كمعتوه فقد أهليته لتدبير شؤونه وبات يشكل عبئاً وخطراً

على الآخرين، لابد أن يُعهد إلى المختصين بمعالجته حتى يعود سوياً بالمعايير الغربية، يتفهم مفاهيم الغرب، ويستجيب لدوافعه، ويُلبي احتياجاته، كتابعٍ إمَّعة.

أتصور تلك المسيرة، وهي تتشكل مثنى وفرادى، ثم تنمو وتتكامل لتشمل كل الشرائح والأطياف والفئات والتيارات، تحث السير إلى فرانكفورت تتقدمها أعلامها ولافتاتها، حتى إذا دخلت حلبة المنتدى الثقافي الدولي وضربت خيامها فيه، راحت تستقبل الناس زرافات ووحداناً؛ تغتنم كل فرصة لتحكي لهم حكاياتها، وتقص مأساتها، وتروي ملاحمها؛ تعبر عنها بكل وسائل التعبير؛ شعراً ونثراً، محاضرة وحواراً ومنتدى، صوتاً وصورة، قصة ورواية ومسرحية، أزياءً وفنوناً شعبية، أفلاماً وثائقية تعرض صوراً إيجابية من حياتنا وقيمنا، وأسواقنا ونسائنا وأسرنا، تتواصل مع الناس بمودة وألفة تقدم لهم الحلوى الشامية والقهوة المرة على إيقاع المهباج، تعزف لهم على العود والناي، ترسم لهم زخارفها الأندلسية، تكتب أسماءهم بحرفها الكوفي، وخطوطها الجميلة، تجيبهم على تساؤلاتهم، تغني لهم، تعرض تراثها بكل ما فيه من تنوع وطرافة منبثقة من قيم واحدة، وتعرب عن تطلعاتها وطموحاتها المنطلقة من أهداف إنسانية مشتركة، وتعبر عن رغبتها الأكيدة في النهوض من كبوتها لتستأنف حضورها الإنساني الفاعل، ولتسهم في بناء نظام عالمي جديد؛ ينعم بالسلام في ظل سيادة قيم الحرية والعدل والمساواة والإخاء، ويتخلص من لوثات التفرد والتسلط والهيمنة والاستئثار وحق الفيتو وأشكال التمييز العنصري.

ومن أبرز سمات هذه المسيرة العفويةِ التشكل – كما أتصورها-: التعدد والشمول والحماس والصدق والعمل الجمعي الطوعي والإيجابية، فلا يستطيع طيف أو فئة أو تيار – مهما كان نفوذه – أن يستأثر بإدارة دفتها، أو أن ينحرف بأهدافها، ولئن حاول أحد ذلك، فإن الأطراف الأخرى سوف تتحرك للقيام بدورها الذي تعده واجباً تؤديه من دون مقابل، وتسترخص لأدائه على وجهه كل غالٍ.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الطرف المضيف يعاف – بحكم ثقافته – ذلك النوع من التفرد والاستئثار.

هل ستنفضُّ المسيرة بعد انقضاء أيام المعرض الخمسة، تلملم خيامها وتطوي أعلامها ولافتاتها، وتلوذ بالصمت عائدة إلى بلدانها لتنعم فيها بأجواء رمضان؛ تصوم نهاره وتقوم ليله رافعة أكفها إلى السماء، وصوتها بالدعاء: اللهم قد بلغت!! اللهم فاشهد؟!!

أم تُراها ستستأنف مسيرتها، وتتابع أنشطتها على مدار عام كامل، عام الاستضافة على التراب الألماني، وعلى مدار سنوات قادمة إلى أن تطمئن على بلوغ المسيرة أهدافها؟!

وما هي هذه الأهداف التي خلقها تحدي فرانكفورت إن لم تكن صحوة فكرية تغير من خطابنا وأحوالنا في الداخل، وتقوِّم علاقاتنا وحضورنا في الخارج، لتحتل ثقافتنا مكانها اللائق بها في المجتمع الإنساني؟!

لكي لا نصدم في فرانكفورت

٢٠٠٤/٨/٤

تسعة أسابيع قبل المعرض

علينا أن نحدد أهدافنا من المضي إلى فرانكفورت بدقة، حتى لا نفاجأ أو نصدم..

علينا أن نحدد أهدافنا بعيداً عن الشعارات، والأحلام، والأماني، والوعود، والهواجس، والانفعالات، والشكوك، والريَب، والطموحات البعيدة المنال..

ولكي نتمكن من ذلك، ينبغي أن نتساءل، ونجتهد في الإجابة عن تساؤلاتنا:

١-لماذا يدعونا الغرب إلى فرانكفورت؟!

٢-ما الذي يريده منا هناك؟!

٣-وما الذي نريده نحن منه؟!

ولا بد أن كلاً من هذه التساؤلات يثير بدوره تساؤلات أخرى تنبثق منه أو تتفرع عنه، تستدعي الإجابة عنها:

فأما السؤال الأول : لماذا يدعونا الغرب إلى فرانكفورت؟!

فإنه يثير السؤال: من نحن بالنسبة للغرب؟!

هل نحن الصديق الوفي الذي سبق أن قدم له خزانته المعرفية مجاناً لتكون رأس مال لنهضته، يدعوه إليه اليوم بحثاً عن رصيد مكنون لديه يمكن أن يفيد منه في أزمته الراهنة، إن لم يكن عرفاناً بفضله، ورداً لجميله؟!

أم نحن العدو اللدود الذي ما فتئ يناصبه العداء ويبادله التشاحن والبغضاء في صراع طال أمده، يدعوه مكيدة ينصبها له ليجهز عليه فيها؟!

أياً كانت الصفة التي ندعى بها، والدوافع من ورائها، فإن من ثقافتنا أن نجنح للسلم إذا جنحوا لها، وأن نغضي عن السيئات دون أن نتجاهلها، وأن نفترض حسن النية دون أن نغفل عن احتمالات سوئها.

وعلى الرغم من إمعان الغرب في حوك مخططاته لتغيير هويتنا وإدماجنا في مشروعه للشرق الأوسط الكبير، ومطالبتنا بالتحديث والإصلاح الديمقراطي والتربوي على طريقته لإلحاقنا بمنظومته الفكرية، واتخاذه إجراءات تجفيف الينابيع ومصادرة جمعياتنا الخيرية ومنع الحجاب والتعتيم الإعلامي وقرارات الإسكات والحجب خلافاً لمبادئه التي أقام بنيانه الحضاري على أسسها..

وتقديراً منا للظروف بالغة التأثير على الساحة السياسية العالمية بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، التي أشعرت الغرب بضآلة معلوماته التي قدمتها له عنا أجهزة الاستشراق والاستخبارات ومراكز الأبحاث خلال قرون..

فإننا سنقبل -بحسن نية -الهدف المعلن الذي يتلخص في توفير الفرص لمزيد من التعارف والتحاور تمهيداً لمزيد من التفاهم والتعاون.

وسيثير السؤال الثاني (ماذا يريد الغرب منا في فرانكفورت؟!) تساؤلاً:

هل يريد الغرب منا في فرانكفورت أن نعلن براءتنا من ثقافتنا وتراثنا باعتبارها ماضياً فات أوانه، لنلتحق بحداثته كببغاوات من دون أن نسهم بشيء فيها، ونقيم هناك كرنفالاً نحتفي فيه برموز الحداثة الغربية، ونعبر عن إعجابنا بها وانخراطنا فيها وإتقان محاكاتنا لها؟!

إذن لانتفى الغرض المعلن من دعوتنا، وانقضت الحاجة إلينا، فالغرب إنما يريدنا في فرانكفورت، ليس بوصفنا شبيهاً مستنسخاً منه، أو مثلاً ممسوخاً عنه؛فقد باتت هذه المثلية المقيتة أشد ما يكرهه الغرب، وإنما بوصفنا آخر مختلفاً

عنه، له شخصيته وثقافته ومقوماته ومكوناته، يحاول أن يكتشف أسراره، ويحل ألغازه، ويستخلص نقـــاط الوفـــاق والخلاف معه، ليضيف منها جديداً إليه يغني به ثقافته ويفيد منه في تطوير ذاته.

هذا الوجه الآخر المتميز هو ما يريده الغرب منا في فرانكفورت.

أما السؤال الثالث (ماذا نريد نحن من الغرب؟!) فيستدعي أسئلة منها:

هل نطمع في فرانكفورت أن نفلح في الحصول على صك غفران يثبت براءتنا من تهمة الإرهاب، وإيثارنا للسلام، وأهليتنا للاندماج الفاعل في المجتمع الدولي؟!

هل نطمع في أن ننجح باستصدار قرارات إلغاء لكل الإجراءات المهينة المتخذة ضدنا؟!

هل سنصحب معنا شاهداً يشهد على الراغبين بإعلان إسلامهم من الغربيين ويحصي عددهم، فيضيفه أرقاماً غـــير ذات جدوى إلى مليار المسلمين العاجزين؟!

هل سنتمكن من محو الصورة النمطية السوداء المستقرة في أذهان الغربيين عنا منذ مئات السنين، واستبدال صورة أنقى وأتقى بها؟!

هل سننجح في تسويق آدابنا وفنوننا وأذواقنا، وانتزاع شهادات التقدير لها لديهم؟!

لنتواضع حتى لا نصدم!! .

ولتكن أهدافنا واقعية قريبة المنال، يشجعنا تحقيقها على متابعة خطواتنا للاستزادة منها، على طريق طويل بطـــول قرون المواجهة بيننا وبين الغرب، وعبر مباراة غير متكافئة الأدوات والوسائط، هي الأولى من نوعها بيننا وبينه..

إن ثقتنا بأنفسنا وقبولنا تحدي المباراة– على تفاوت الإمكانات – هو أول خطوة على طريق النجاح.

وسيكون إفلاتنا من شراك المكايد التي سوف تستدرجنا الصهيونية إليها لتطوقنا بعقدة ذنب اللاســـامية، مثلمـــا طوقت أعناق الألمان؛ خطوة ثانية على الطريق.

أما تمكننا من لفت أنظار الغربيين وجذب أسماعهم للإصغاء إلينا ونحن نتحدث إليهم من فوق منبر فرانكفـــورت وعلى طاولاته للحوار، فسيكون ذروة النجاح التي تعبد لنا الطريق.. فليكن ذلك هدفنا من الذهاب إلى فرانكفورت.

فما جدوى الحوار؟!!

٢٠٠٤/٨/١١

ثمانية أسابيع قبل معرض فرانكفورت

عما قليل سنذهب إلى فرانكفورت.. في ظروف قاسية، بالغة الصعوبة..

تلهب ظهورنا سياط طلبات التحديث والإصلاح والتغيير..

تُسلخ جلودنا لتُستبدل بها جلود جديدة تحت مسمى (مشروع الشرق الأوسط الكبير)..

تُكمَّم أفواهنا، حتى لا تنطق بحرف عربي يؤذي أسماع السادة المحاورين على الطرف الآخر من طاولة الحوار..

يُخطط لتغيير ألسنتنا وفق برنامج دقيق، يكفل القضاء على لغتنا العربية بذريعة أنها معقدة؛ يفك ارتباطها بالقرآن لينـــزع عنها صفة القداسة ويُعِدَّها للتحديث؛ يَستبدل حرفه اللاتيني المنفتح بحروفها المنغلقة، يُسكِّن أواخر كلماتِها ليخلصها من قواعدها الصارمة.

يوضع جدول زمني لا يتجاوز العقدين من الزمان، لتأهيلنا لنسيان لغتنا؛ تمهيداً لقطع صلتنا بتاريخنا وتراثنا الـذي هو ينبوع قيمنا وحضارتنا..

تُؤجَّج في الذاكرة الغربية صورة سوداء للإنسان العربي المسلم، صنعتها قرون الصراع والمواجهة الطويلة بين الإسلام والغرب، لإذكاء روح الكراهية والعداء والتعصب لدى الإنسان الغربي..

تُستحثُّ الحكومات الغربية تباعاً لإصدار قوانين منع الحجاب، وإغلاق المراكز الثقافية العربية، وجمعياتها الخيرية، خلافاً لكل مبادئ الحرية والديمقراطية التي ينادون بها، لإحكام الحصار على العالم العربي والإسلامي، وشل قدراته..

تُحتل أرضنا في العراق، ويُنشر فيها الذعر والنهب والقتل والدمار والخراب، بذريعة الديمقراطية والتحرير وتوفير الأمن والطمأنينة لنا..

يُقتل أطفالنا، وتهدَّم بيوتنا فوق رؤوس أمهاتنا وشيوخنا، وتقتلع أشجارنا، ويبنى الجدار العازل في فلسطين بالأحجار ذاتها التي اقتلعت من جدار برلين..

فما جدوى الحوار؟!!

إذا كان في اتجاه واحد؛ كرجع صدى!!

إذا كان من طرف واحد؛ كحوار مع الذات!!

إذا كان محسوماً مسبقاً لصالح صاحب الصوت الأعلى!!

إذا كان حول ما يُزعم أنه كبد الحقيقة ونهاية التاريخ!!

إذا كان المحاور يلوِّح لنا بعصاه الطويلة، قبل أن تنبس شفتاه بكلمة!!

إذا كانت لغة الحوار الرسمية لغتَه، واللسانُ الوحيد لسانَه!!

سنذهب إلى فرانكفورت مهما قست الظروف، وتلبدت الشكوك..

ثقة منا:

* بحسن نية أصدقائنا الألمان، الذين يعانون ما نعانيه من عقدة ذنب لم نقترفه، والذين كانوا من أوائل من أصغى إلينا وتفهم حضارتنا وقيمنا وأنصفنا، فكان من بينهم غوتة وزيغريد هونكه وآنا ميري شيمل.

* وبتشابه ظروفنا الراهنة مع الظروف التي أسس على أنقاضها معرض فرانكفورت للكتاب فور خروج ألمانية منهكة مدمرة من الحرب العالمية الثانية لتظهر للعالم وجهاً ثقافياً ناضراً يعفي على وجه النازية الكالح..

* وبنظافة منبر الحوار الذي تقدمه لنا، وموضوعيته وصدقه في قبول الآخر، ورغبته في الإصغاء إليه، وتفهم آرائه، وسبر أغواره، واستكناه أسراره، وكراهيته للمجاملة والتزلف والتملق والمحاكاة والتقليد..

* وبأهمية الفرصة التي يتيحها لنا هذا المنبر للتعبير عن ذاتنا وتراثنا، وعرض قيمنا وأفكارنا، ونشر بضاعتنا ولو كانت بضاعة المقل، فقد يجد الإنسان الغربي بعض ضالته فيها..

* وبالتجربة الأوربية الفذة، التي أثبتت للعالم أن الحوار هو الوسيلة الأجدى لحل المشكلات واستئصال جذور الكراهية بين الشعوب، فأقامت الاتحاد الأوربي الراسخ، بعد حروب طاحنة لعدة قرون، كان آخرها حربان عالميتان

أشعلتهما أوربة في القرن العشرين، لتختتم بهما عصر الحروب والنـــزاعات المسلحة، ولتنعطف بالإنسانية إلى عصـــر جديد يوسم بعصر الحوار.

* وبالانعطاف الإنساني المتسارع، الذي حققته ثورة المعلومات والاتصالات، فنقلت الإنسان بسرعة مذهلة مـــن عصر اقتصاد الصناعة وأدواته المادية المتفاوتة بين البشر، إلى عصر اقتصاد المعرفة وأدواته الذهنيـــة الـــتي وزعهـــا الله بالتساوي بين الشعوب والأمم، وبدلت عوامل الإنتاج التي أحلت المعلومات وعمالة الأفكار والإبداع، محـــل الأرض ورأس المال وعمالة الأيدي، وقلبت معايير التقدم بين الأمم لتتركز فيما تملكه الأمة من رصيد في المعلومات والأفكار، لا بما تملكه من ثروة المال والمداخن الشاهقة وترسانة السلاح، وجعلت الشعوب كلها على عتبة سباق واحدة، تنطلق منها بفرص متكافئة، ليفوز بالسبق من كان أعمق فكراً وأكثر إبداعاً..

وبأن ثقافتنا لم تفقد مبرراتها، و لم تستنفد قدراتها ومخزونها الكبير بعد، ولا يزال لديها ما تقدمه للغرب مما هـــو في أشد الحاجة إليه في الوقت الراهن:

لملء الفراغ الأخلاقي الكبير، الذي حصدت الإنسانية ثمراته المريرة في سجون أبي غريب، وما تزال تحصـــدها في هدم البيوت وتشريد الآمنين وقتل العُزَّل وقلع الأشجار وإشادة الجدار العازل تحت سمع العالم وبصره في فلســـطين، فهو حركة إلى الوراء، ستتجاوزها الإنسانية مواصلة كفاحها لاسترداد مكتسباتها الكبيرة واستئناف مسيرتها إلى حيث أراد لها الله من التقدم والسمو والارتقاء..

ولملء الفراغ السياسي الذي خلفه انهيار الاتحاد السوفيتي، وتسبب في الإخلال بنظام التعدد والازدواج، والتضـــاد والتدافع، الذي أقام الله الكون كله على أساسه، واحتفظ لنفسه وحده بالتفرد والوحدانية، فكلما حاول الإنسان أن يتفرد ويلغي زوجه الآخر، مشى كالأعرج يقفز على رجل واحدة، ويتخبط على غير هدى..

ولملء الفراغ الروحي الذي خلفه انهماك الغرب في تلبية احتياجات الإنسان المادية وتنميتها إلى حـــد الإفـــراط، وإهمال تلبية أشواقه الروحية إلى حد التفريط، مما تسبب في الإخلال بتوازنه وحرمانه من طمأنينته عن المصير..

ولملء الفراغ الفلسفي الذي أفضى بالحداثة التي اهتمت بتحرير الإنسان وإرساء حقوقه، إلى ما بعد الحداثة الـــتي عادت بالإنسان إلى الغاب، تسيره غرائزه وشهواته..

وعلى الرغم من أن أمتنا تعيش دورة انحسارٍ لحضارتها العظيمة، أضعفت خطاها، وحرمت الإنسانية من عطاءاتها، فإن في جذورها العميقة الراسخة طاقةً كامنةً، ونسغاً غنياً كفيلاً بإعادتها إلى دورة مدِّها الحضاري، والإسهام في بناء حضارة إنسانية يسودها العدل والإخاء والمساواة..

أعني تلك الجذور المستقرة في ضمير الإنسان العربي المسلم ووجدانه، المتمثلة في قيمه التي تشكل ثقافته ، وتحـــرك سلوكه، وتجعله يرفض عفوياً وتلقائياً:

كل أشكال التمييز العنصري، بسبب العرق أو اللون أو الجنس أو الدين، فهو مؤمن بوحدة الأصـــل الإنســـاني «كلكم لآدم وآدم من تراب» مؤمن بوحدة الرسالات السماوية، ينتفي إيمانه إذا انتقص واحداً من أنبيـــاء الله (مـــن سماهم الله ومن لم يسمهم): {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} [البقرة: ١٣٦/٢] . مؤمن بالتنوع والتعدد وسيلة للتعـــارف والتكامل والتنمية الإنسانية {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: ١٣/٤٩] ، يَعُدُّ الاخـــتلاف ضـــرورة

ونعمة من نعم الله مثل خلق السموات والأرض {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ} [الروم: ٣٠/٢٢] .

كلّ أشكال التفرد والاستئثار، فلا مكان في ثقافة العربي المسلم لحق (الفيتو)، الذي يرفع صوت الأقوياء فوق أصوات أمم الأرض جميعاً {بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَنْ خَلَقَ} [المائدة: ٥/١٨] ، و "الخلق كلهم عيال الله؛ أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله" .

كلّ أشكال الظلم، فلا كيل بمكيالين، إنما هو مكيال واحد، يكيل للنفس وللآخر {كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [النساء: ٤/١٣٥] ، {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة: ٥/٨] .

كلّ أشكال الاستبداد والطغيان والعدوان {تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [آل عمران: ٣/٦٤] . وقد بلغ من تعمق هذه القيمة في ضمير المسلم أنه لم يطلق في تاريخه صفة الرشد على أحد بعد الراشدين الأربعة لأن الرشد في نظره لا يكون إلا إذا حكم الحاكم برضا الناس والتزم بالدستور الذي ارتضاه الناس.

سنذهب إلى فرانكفورت رافعي الرؤوس، منتصبي القامات؛ نقدم ثقافتنا وقيمنا بنبرة واثقة، نعتز بخصوصياتنا وإبداعاتنا، نحاور بها بندّية واحترام، نثق أن الآخر سيبادلنا الاحترام ذاته، لأنه بحكم ثقافته يبحث عن الآخر المختلف، يكمل به ما عنده، ويكره المقلّد الإمعة؛ ينظر إليه كنسخة مسيخة عن الأصل لن ترقى لمستواه مهما بالغ في محاكاته والتشبه به، وتدبيج قصائد المديح له..

من ثقافة الكرة إلى كرة الثقافة

٢٠٠٤/٨/١٨

سبعة أسابيع قبل معرض فرانكفورت

باختيار الثقافة العربية الإسلامية ضيف شرف على معرض فرانكفورت للكتاب ٢٠٠٤، يكون المعرض قد خرج بالمشاركة العربية من إطارها المهني الاحترافي المنحصر في أطراف صناعة الكتاب، إلى إطارها الثقافي الواسع الذي يشمل كل شرائح المجتمع، إذ الثقافة بمفهومها العلمي الدقيق تمثل النسيج الذي يكسو جسم المجتمع من الخارج، والنسغ الذي يجري في عروقه من الداخل، فيشكل قيمه وعاداته وتقاليده وردود أفعاله، وكلاهما؛ النسيج والنسغ، ملك مشاع بين أفراد المجتمع، يستوي الكل في امتلاكه، وليس لأحد أن يدعي احتكاره من دون الناس، تحت أي ذريعة كذرائع السلطة أو النخبة أو الطبقة..

وبهذا المفهوم الدقيق تكون الثقافة العربية المستضافة في فرانكفورت، هي ثقافة كل إنسان عربي، يجلس وراء مكتبه، أو يعمل في مصنعه، أو يدير دفة عمله، أو يقود سيارته، أو يتمشى في حديقة حيه، أو يكد على عياله، أو يسهر ليوفر الأمن لأهله، أو يعرق ليميط الأذى عن طريقهم..

هل ستستطيع الثقافة العربية المستضافة في فرانكفورت أن تنفذ إلى ضمائر كل هؤلاء الناس فتحركها؟!

تشعرهم أنهم المعنيون بهذه الاستضافة.. وتشركهم معها.. وتشد انتباههم إليها.. تلفت أنظارهم نحوها.. تعلق أبصارهم بها.. وتستأثر بخلجات قلوبهم وهم يرقبون أداءها.. يطربون لطربها، ويألمون لألمها، ويبتهجون لنجاحها، ويهلعون لإخفاقها؟!

سيقول رجل الشارع، ما عساي أفعل لفرانكفورت؟ وأقول لرجل الشارع: ماذا كنت تفعل وأنت تتابع تصفيات كأس العالم لكرة القدم؟! تتراخى يداك عن أهم الأعمال الموكلة إليك، وتتسمر عيناك على التلفاز؛ تصيح بأعلى صوتك مشجعاً عند كل هدف يسجله فريقك المفضل، وتضرب كفاً بكف عند كل خطأ يرتكبه أو إخفاق ينتابه!!.. تغيب عن محيطك، وتقفز عبر التلفاز إلى الملعب!!

هل كرة القدم أعز عليك من ثقافتك الممتحنة الممتهنة التي تخوض صراعها المرير مع العالم في فرانكفورت!!

ألا تستحق ثقافتك أن يكون لها من المكانة في نفسك ما لكرة القدم، مع الفرق الكبير بينهما؛ إذ الفريقان في كرة القدم ينتميان إليك، لا غضاضة عليك أن تتأرجح بينهما، بينما ثقافتك هي فريقك الأوحد في مباراة الثقافة الدولية؛ هي أنت، إذا ضيعتها ضعت أنت، وتلاشت شخصيتك، لتذوب في خضم الثقافات الأخرى..

لهفي على الثقافة،، وهي المستقرة في صميم الضمير والوجدان من الإنسان، أتعجز أن تكون مثل كرة القدم التي استطاعت أن تستقطب ملايين الناس في مصر بين أهليّ وزملكاوي، تزدحم الشوارع إذا حان موعد مباراتهما، وتخلو من المارة إبان انعقادها، ويختصم الناس أياماً بعد انفضاضها، وإسفارها عن انتصار هذا وهزيمة ذاك، ويستعد الجميع لجولة الثأر القادمة؟!

من لي بصفارة إنذار، إذا أطلقتها أيقظت النائمين من أمتي، على نذير خطر داهم يتهدد وجودهم وهويتهم، بدءاً بثقافتهم وقيمهم؟!

من لي ببوق؛ إذا نفخت فيه وصلت صيحتي إلى كل فرد في أمتي؛ أن أدرك ثقافتك في مباريات كأس العالم الثقافية؟! أسهم بها مشجعاً على الأقل، إن لم تستطع أن تسهم فيها برأي أو فكرة أو مال!! شارك فيها بوجدانك، وتلهفك ومتابعتك، فمشاركتك الوجدانية تتصل مسيرتها من أعماق حيك وحارتك ومركز عملك، إلى فرانكفورت حيث تنعقد المباراة، وسيشعر ممثلوك في مباراة فرانكفورت بحرارة تأييدك، ولهيب عاطفتك، وأهمية دعمك، وسيتحسن أداؤهم هناك، لتقطف ثمرات نجاحهم هنا..

إننا في عصر الاتصالات التي قربت الأبعاد وألغت المسافات، أصبحنا نعيش الحدث لحظة بلحظة، ونشارك فيه ونتفاعل معه بوجداننا من دون أن ننتقل إليه بأبداننا..

ونحن كذلك في عصر المعلومات الذي ارتقى بالإنسان من عالم الأشياء الذي تنتمي إليه كرة القدم، ومن عالم الأشخاص الذي ينتمي إليه اللاعبون، إلى عالم الأفكار التي تبتكر الأشياء وتدفع بالأشخاص معاً إلى النجاح، والأفكار نتاج العقل؛ هبة الله للإنسان وزعها بين الأمم بالتساوي، وسوى بينها في فرص استخدامها، فلا تميز ولا نخبوية ولا تفوق، إلا بمقدار ما تنتج من أفكار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ *} [الملك: ٦٧/١٠] ، وما كنا حقل تجارب للأمم المتقدمة تعبث بثقافتنا وقيمنا وتراثنا، تُدخلها في أتون مراكزها البحثية لتحليلها وصهرها تمهيداً لإعادة صوغها من جديد بحسب معاييرها ومقاييسها..

مراكز الأبحاث هي مصانع الحضارة في عصر المعلومات، ومسؤوليتها وأعباؤها؛ من الضخامة بحيث تنوء بحملها المؤسسات والحكومات، إن لم تتضافر لها جهود الشعوب أفراداً وجماعات..

لا تجد عملاً بحثياً؛ موقعاً على الإنترنت، أو جائزةً للإبداع في الآداب والفنون، أو منحة دراسية، أو مركزاً للبحث العلمي في جامعة إلا وقد ذُيّل الإعلان عنه بأسماء الداعمين وشعاراتهم من رجال الأعمال والصناعيين والشركات، وتوقف له الأوقاف السخية لضمان استمراره..

الأعمال البحثية أعمال غير ربحية، أي إن ثمراتها لا تعود على من يعمل فيها بشكل مباشر، بل يجنيها المجتمع بأسره، بما فيه من تجار ورجال أعمال وشركات، وعلى عاتق هؤلاء جميعاً تقع أعباء تمويله الثقيلة، فإن هم توانوا عن حملها خسر الجميع، وسقط الجميع في حمأة التخلف..

لن تقوم قائمة لمجتمع يتوزع أفراده بين فئتين؛ فئة توكل إليها مهمة الأخذ باستمرار وأخرى توكل إليها مهمة العطاء باستمرار، فسرعان ما ينفد مخزون المعطي وتنطفئ شعلته، فلا يبقى للآخذ ما يأخذه أو يستضيء بنوره..

وما الحضارة إلا محصلة هذا التفاعل بين الأخذ والعطاء والحق والواجب، فكلما كان رصيد المجتمع من العطاء وأداء الواجبات موجباً كان الخط البياني لحضارة هذا المجتمع صاعداً، ولسوف ينحدر خط سيره هابطاً إذا كان رصيده سالباً، وكان الأخذ فيه أكثر من العطاء، وكانت المطالبة بالحقوق فيه أكثر من أداء الواجبات، حتى يصل إلى الحضيض. أما إذا توازن حقلا أخذه وعطائه وكان رصيده منهما صفراً، فسيمشي خطه الحضاري مستقيماً، وسيراوح مكانه، مذراً بقرب النهاية التي تقود إليها حالة السكون والاسترخاء والعجز..

هل استطعت في مقالتي أن أوضح رأيي:

* أن الثقافة الحقة هي ما يستقر لدى المجتمع في ضميره فيتحرك سلوكاً يمشي على الأرض، لا ما تطرحه النخب (المثقفة) في المنتديات فيتلاشى نظريات في الهواء؟!

* وأن مراكز البحث العلمي الجاد هي مصانع التحضر والتقدم في عصر المعلومات؟!

* وأن مسؤولية تنمية الأفكار ودعم الأعمال البحثية وصون ثقافة الأمة من الجمود والتكلس والعجز، تقع على عاتق رجال الأعمال والمؤسسات المالية؟!

هل استطعت أن أقنع قارئي بترتيب لسلم الأولويات؛ أراه في:

* أن رياضة الأذهان ينبغي أن تكون قبل رياضة الأبدان؟!

* وأن أداء الواجبات يجب أن يكون قبل المطالبة بالحقوق؟!

* وأن قابلية الفعل ينبغي أن تكون مقدمة على مجرد النظر؟!

لئن لم أستطع فسأستمر في المحاولة، حتى يتبين لي خطئي، ولن يتبين لي خطئي إلا من خلال النقد والحوار الذي أتوق إليه وأنتظره بكل تلهف..

١٤٠٠ عام من التعايش والإخاء الإنساني

٢٠٠٤/٨/٢٥

ستة أسابيع قبل المعرض

سنذهب إلى فرانكفورت نحمل معنا {قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ} [يس: ٢٦/٣٦] ؛ رسالة محبة ومشاركة إلى كل العالم، وقومنا في فرانكفورت وفي زمن الإنترنت هم كل بني الإنسان..

سنحمل معنا ثقافة الصبر، وثقافة المحبة؛ أرساها رسولنا وهو في أشد الظروف حلكة، عندما وضع أمله في مستقبل البشرية "عسى أن يخرج من أصلابهم" . وهذه الثقافة هي في الوقت ذاته ثقافة مسؤولية حمل رسالة العلم لكل الناس ولكل الأجيال.

سنذهب إلى هناك لا نحمل كلاماً عن حبنا للناس، بل نحمل ألفاً وأربع مئة عام من الالتزام، ونحمل المئات بل الآلاف من أبراج الكنائس العتيقة والجديدة المنتصبة في بلادنا، ويذهب معنا إخواننا من المسيحيين واليهود الذين عاشوا معنا كل هذه السنين، فثقافتنا هي ثقافة اقتران الفعل بالقول، ثقافة الالتزام أولاً وقبل كل شيء.

سنذهب إلى هناك شاعرين بالتميز دون استعلاء، ففي بلادنا، وفي بلادنا وحدها، عاش المسلم والمسيحي واليهودي يبنون معاً حضارة الإنسان، والتميز هنا تميزهم جميعاً؛ كيف تعاونوا أيام الرخاء، وكيف تعاضدوا أيام الشدة في مواجهة الأنواء والأعداء.

مبتسمين نذهب هناك؛ نذكر صهيباً إذ يربح البيع حين يبذل كل شيء ليشتري الحقيقة، فنحن أيضاً أتينا ننشد الحقيقة في مشوارنا هذا، ونذكر بلالاً إذ صبر على العذاب تشبثاً بالفكر الذي آمن به، وسلمان في رحلته للبحث والتفكير، بل والنجاشي وابن سينا والبيروني وصلاح الدين وأحمد ياسين.. الحقيقة والفكر والصدق والالتزام والصبر أيضاً هو ما نحمل في جعبتنا.

شيء أيضاً من الفخر ربما كان يدفعنا إلى هناك، وأمل أيضاً؛ أمل بالله وأمل بأولئك الصابرين المصابرين المؤمنين المتفائلين الملتزمين بعهد الله، لا يجرمنَّهم الشنآن والبغض على أن يعتدوا.

نذهب إلى هناك ملتزمين بدعوة العدل لكل الناس والحرية لكل الناس، والعلم لكل الناس؛نبدي إعجابنا بكل ما هو رائع وجميل في حضارة الإنسان وقيم الإنسان الذي كرمه الخالق كإنسان.. يعجبنا الإنسان ونحبه، يعجبنا فكره وعلمه والتزامه بقيمه أياً كانت ملته ولونه ودينه ومعتقداته، نحبه لأن ربَّنا كرمه، ولأن ربنا ألزمنا باحترام حقوقه علينا كإنسان، وأيضاً لأن أجدادنا وعلى امتداد بقاع الأرض طبقوا هذا الالتزام على مدى ألف وأربع مئة عام، فلا أقل من أن نحفظ إرث أجدادنا.

ونذهب إلى هناك منصتين ومستمعين؛ نحكي قصتنا ونسمع قصص الآخرين، نحمل دمعتنا ونحاول أن نمسح دموع الآخرين، نفخر بما زخرت به ثقافتنا وننقد ما يرفضه منها كل عقل حكيم وذوق سليم، ونصفق بملء أكفنا إعجاباً بما صنعته وتصنعه ثقافات الآخرين.

علمتنا ثقافتنا أن نعشق الإنسان،وأن ننظر إلى إنجازاته بتقدير وإعجاب به، فنشعر بالانتماء إلى إنجازاته لأنه مثلنا إنسان، ممن كرمهم الرحمن، نشعر بالانتماء لكل حق، ولكل عدل، ولكل فكر حر، ولكل إنجاز وسبق حضاري، بل لكل ما هو إنساني، وفي فرانكفورت نتمنى أن ينظر الناس إلى ثقافتنا مثلما ننظر إلى ثقافتهم باعتبارها ملكاً للإنسانية جمعاء..

نصر على أن نكون هناك، لأننا نؤمن بأن لنا دوراً؛ علينا أن نقوم به، وأننا حملة رسالة يجب أن نوصلها،وأن علينا أن نجمع دورنا إلى أدوار الآخرين، وأن نستمع وننصت ونعقل رسائل الآخرين.

****

وهاأنذا، للأمانة العلمية أقول: ليس ما قدمت آنفاً كلامي، إنما هي كلمات قارئ ما فتئ يتابعني؛ يقرأ مقالات العد التنازلي التي أنشرها أسبوعياً على موقع www.fikr.com ويبادلني الإحساس بما تعتلج به جوانحي من حرقة ولهفة إلى أن نغتنم فرصة فرانكفورت، فلا ندعها تضيع منا سدى، أو تتبدد هباءً كأن لم تغْنَ بالأمس، ويشعر معي أننا لن نذهب إلى فرانكفورت مفلسين صفر اليدين، بل إن لدينا ما نحمله إليها مما يحق لنا أن نفاخر به.

إنها كلمات قارئي، ليس لي منها غير هذا الذيل، فليكن هذا بمثابة المقدمة لكلماته، ولتحمل الكلمات توقيعه إن كان لابد لهذا المقال الذي يأخذ مكانه في سلسلة مقالاتي أن يحمل في مقدمته اسمي إنه.

المهندس

محمود عبد الرحمن الصابوني

على خط التماسِّ في فرانكفورت

٢٠٠٤/٩/١

خمسة أسابيع، ونذهب إلى فرانكفورت

لنكون على خط التماسّ المباشر مع ثقافات العالم..

وخطوط التماسِّ، في العصر الجديد، الذي يتحول إليه الإنسان، لم تعد عسكرية بقدر ما غدت ثقافية وفكرية..

فبانتهاء الحرب الباردة وغياب الاتحاد السوفييتي، بدأ الغرب يبحث عن العدو البديل.

ولئن كان الاتحاد السوفييتي يمثل للغرب العدو التكنولوجي والإيديولوجي معاً، فإن عصر المعلومات الذي رفع الفكر إلى أعلى المراتب، دفع الغرب إلى البحث عن مكامن القوة الفكرية في الأمم، فلم تجد بين ثقافات العالم كله، من بوذية وكونفوشيوسية ولاتينية وعلمانية، ثقافة جديرة باختيارها لشغل منصب العدو البديل غير الإسلام.

هكذا، سرعان ما انبرت تاتشر في بريطانية، ونيكسون في أميركا إلى قرع ناقوس الخطر، وإعلان فوز الإسلام بهذا المنصب، واستنفار جميع القوى لمواجهته بوصفه العدو الجديد.

من المؤكد أن الغرب لم يلتفت – عند اختياره تنصيب الإسلام عدواً– إلى موازين القوى العسكرية، ولم يحمل همَّ المواجهة العسكرية معه، فهو يعلم أنه يعاني حالة انحسار حضاري وعجز تكنولوجي، أفقداه القدرة على التكافؤ بله التفوق فيها، وأن انهيار الاتحاد السوفييتي حرم العالم الإسلامي من مصدر منافس للتسلح، ليستأثر الغرب بتسليحه، كمصدر وحيد، يتحكم بالنوع والكم والأهداف، فلا يعطيه من السلاح إلا ما يستطيع به أن يقتل نفسه.

ويبدو أن ما ينطوي عليه الإسلام من مخزون فكري عظيم، قادر على ملء أي فراغ إيديولوجي؛ فلسفي وأخلاقي وعملي، هو ما رشحه لشغل منصب العدو البديل المقبل للغرب.

ذلك أن الفكر الشيوعي المتداعي لم يكن بالحجم ذاته الذي يشغله الفكر الإسلامي، فهو جزء من المنظومة الفكرية الغربية، وهو بالتالي مثلها جزئي لا يلبي كل تطلعات الإنسان وأشواقه.. ولئن كان هذا الفكر الإسلامي

يعاني ما يعانيه الآن من جمود وتحجر وتقوقع، فإنما هي فترة كمون قد تتفجر كالبركان في أية لحظة مثلما سبق لها أن تفجرت. وما حدث مرة يمكن أن يتكرر حدوثه مرات، طالما أنه يحتفظ بطاقته المستكنة في أعماق الضمير الإنساني، وهذه الطاقة الكامنة هي المستهدفة من الغرب الأميركي هذه المرة، وهو الذي يخطط - مزهواً بتفوقه، مزهواً بتفرده- ليكون سيد الألفية القادمة بلا منازع، فهو يستنفر لإعداد مخططاته كل مراكز أبحاثه، فلا تمده بغير نظريات صراع الحضارات ونهاية التاريخ والمطرقة الثقيلة، وكلها نظريات بائدة فات أوانها، تسير بعكس اتجاه التطور البشري والسنن الكونية وقوانين التاريخ، فهي بذلك تحمل عوامل إخفاقها وبذور فنائها..

فكل محاولات التوحد والتفرد ونفي الآخر؛ سواء أكان هذا النفي باستعباده واستلحاقه، أو باستبعاده وطرده، أخفقت وذوت ثم انهارت متفسخة من داخلها، فاندثرت تحت أنقاضها غير مأسوف عليها، لأنها لم تتفهم عبرة التاريخ الإنساني وقوانينه الصارمة الصارخة بملء فيها: كل اتجاه نحو التفرد والتوحد سيكون مآله الشيخوخة فالفناء، لأن الفرد عقيم لا ينجب، ولا ينمو إلا بالتعدد والتزاوج.

إننا نعرف يقيناً؛ أن وضعنا الثقافي الراهن، وواقعنا الحضاري المتخلف، بما في ذلك خطابنا الإسلامي السائد، لا يخيف أحداً، ولا يستدعي كل هذا التخطيط والاستعداء والاستعداد للمواجهة الفاصلة، إنما الخوف كله من المخزون الفكري العميق والطاقة الإيديولوجية الكامنة المستقرة في ضمائرنا، وأن استدراجنا إلى خطوط التماس الثقافي الفكري في فرانكفورت، إنما يهدف إلى الكشف عن هذه الطاقات الفكرية الكامنة..

ولا ضير، فإن قبولنا التحدي سيكشف لنا في الوقت ذاته عوارنا وعوزنا، وسيكون وعينا للذات حافزاً لنا على تجاوز المعوقات والصعوبات، والتحرر من الآصار والأغلال التي طوقنا أعناقنا بها خلال قرون التخلف والجمود، وحملناها على عاتق الإسلام، والإسلام منها براء، فإنما جاء الإسلام ليضع عن آبائنا إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ولا يعقل أن يستبدل بها آصاراً وأغلالاً جديدة.

لكن أخشى ما نخشاه أن لا نحسن اختيار محاورينا في فرانكفورت، فنستدعيهم من القرون الخوالي، ليخاطبوا العالم بلسان غير لسانه، ويتحدثون إليه عن مشكلات لا يعيشها، ويتعاملون معه بعملة لا يتداولها.. أو ننتدبهم من الذين انفصلوا عن ثقافة أمتهم وتراثها، والتحقوا بثقافة الغرب وحداثته، ففقدوا الانتماء، وعاشوا هنا وهناك غرباء، فباتوا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء..

القيم أم المصالح أم كلاهما معاً؟

للحوار في فرانكفورت

٢٠٠٤/٩/٨

أربعة أسابيع قبل المعرض

"إذا هزمتموهم؛ فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلا بإذنٍ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تعذبوا النساء بأذى وإن شتمنكم وشتمن أمراءكم" من وصايا علي بن أبي طالب لجنده.

على الرغم من الكثير الذي أحتفظ به في ذاكرتي – مما يؤكد ثقافة كراهية الحرب، وبذل كل جهد ممكن لتفاديه، ومعالجة أسبابه، وتضييق أبواب اللجوء إليه، والتخفيف من ويلاته وأوزاره حين لا يكون منه بد – فقد بهرني هذا النص الذي وقعت عليه، ضمن باقة من النصوص الأخرى والتطبيقات التاريخية التي نشرها الصليب الأحمر في كتيب يقارن بين كل منها وبين ما ورد في شرعة الأمم المتحدة ومواثيقها، ليبين سبق الثقافة العربية الإسلامية في إرساء هذه القيم؛ التي تمثل السعي الإنساني المستمر للتخلص من عار الفساد وسفك الدماء.

وسرعان ما استدعى إلى ذاكرتي نصاً آخر مما روي عن الرسول (أنه قاله يوم الحديبية "يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب.. لا يدعونني إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها".

لعل مبعث هذا الانبهار بالنص الذي انتابني؛ هو تلك الصور الفاضحة عن التعذيب الأميركي في سجن أبو غريب، التي اخترقت الضمير الإنساني، فاتخذت لها مكاناً حفرته فيه لا تبرحه، إلى جانب سائر صور التوحش التي مارسها الإنسان على مر التاريخ منذ أن غادر الغاب ليرتقي معارج التمدن حتى بلوغه عصر المعلومات، والاقتصاد المعرفي، وثورة الاتصالات والعولمة.

وقد جاءت مباركة السيد بوش لأعمال وزيره للدفاع السيد رامسفيلد، وكلمات الثناء العجيب المستهتر بكل القيم الإنسانية – التي حظي بها الوزير من الرئيس إثر الفضيحة المخزية –: "لقد قمت بعمل رائع" ، لتعمق الهوة التي استقرت فيها صور الفضيحة في الوجدان الإنساني، حتى أصبحت لديه كالكابوس، كلما حاول أن يتناساها برزت له أكواماً من البشر العراة كالديدان؛ كدِّس بعضها فوق بعض كأكياس القمامة، وسلاسلَ تطوق الأعناق، وكلاباً تنهش الأجساد، وجلادين مردوا على الاستخفاف بكل ما اكتسبه الإنسان من قيم ارتقى بها على مر العصور، لتقدم له صورة حية عما ينتظره في ظل إمبراطورية الرعب التي تعكف أميركا الآن على بنائها، بعد خلو الجو لها، بانتهاء الحرب الباردة.

وأعود إلى النص، وإلى نص سبقه للخليفة أبي بكر يوصي به أسامة بن زيد قائد جيشه المتوجه إلى الشام: "لا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة" فأرى بعض هذه النصوص قد فات أوانها، فلا يمكن لقنابل السيد بوش مهما بلغت من الذكاء أن تميز بين طفل وشيخ وامرأة، ومقاتل مدبر أو جريح، ولا يمكن لأسلحة الدمار الشامل أن تفرز هؤلاء من بين الجموع الغفيرة التي تسكن الأرض المحكوم عليها بالدمار، وتذهب بهم بعيداً. أما التمثيل بالقتلى فلم يعد له معنى، فالقنابل الملقاة من الأباتشي تمزق القتيل إرباً فلا تبقي منه ما يمثل به.. ولكن ماذا عن البعض الآخر المتعلق بكشف العورات، وهتك الأستار، وتعذيب النساء وإيذائهن وعقر النخيل وقطع الأشجار وتجريف البيوت فوق رؤوس ساكنيها، وكل ذلك يمارسه إنسان بكامل إرادته ووعيه؟! هل تغيرت القيم والأحكام بتغير الأزمان، فأصبح كشف العورات، وهتك الأستار، وتعذيب الناس، وهدم البيوت، وقطع الأشجار، مباحاً ومعروفاً ومظهراً من مظاهر ارتقاء الإنسان وتحضره، بعد أن كان محظوراً ومنكراً وبرهاناً على تخلف الإنسان ووحشيته؟! فَلِمَ تقره شرعة الأمم المتحدة إذن؟! أم إن شرعة الأمم المتحدة استثنت الكبار والأقوياء من أحكامها ضمناً، مثلما منحتهم حق الفيتو في مجلس الأمن نصاً، ليستمتعوا به مزهوين بقدرتهم على رفض وإبطال أي قرار يفوز بأكثرية الآراء في المجلس؟! أتكيل الأمم المتحدة بمكيالين؛ واحد للأقوياء

وآخر للضعفاء؟! وكيف تسمي الخروج على رأي الأكثرية حقاً، ورأي الأكثرية هو الملزم للجميع بحسب جوهر نظام الديمقراطية الذي قامت الأمم المتحدة على أساسه؟! أم إن الأمم المتحدة قد بذرت في شرعتها بذور فنائها؟! "فإنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. "

سيقول قائل هذه سياسة، ومعرض فرانكفورت ثقافة تنأى عن التورط في أحاديث السياسة وأحابيلها..

وأقول: ما عسى أن تكون الثقافة إن لم تكن سلوكاً في الواقع، وتطبيقاً في الحياة، وممارسةً في العلاقات بين بني الإنسان، تنبثق عن القيم المستقرة في الوجدان؟!

ورب قائل يقول: الأمم اليوم تحركها المصالح، فإذا تعارضت المصالح مع القيم فلا بد من التضحية بالقيم لتحقيق المصالح..

وأقول لهذا القائل: فإلى من تحتكم الأمم عند تعارض المصالح؟! هل تحتكم إلى القوة فتعود إلى شريعة الغاب، متخلية عن كل مكتسباتها الإنسانية التي أحرزتها خلال القرون؟! أتحط رحالها في واحة ما بعد الحداثة ؛ ملقية عن كاهلها أعباء كل ما بنته الحداثة والتزمت به من قيم الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة؟!

وماذا عن العقد الاجتماعي الذي يتنازل فيه كل إنسان عن شيء من حريته ليحظى باحترام الآخرين لحقوقه؟!

وهل القيم فعلاً تتعارض مع المصالح؟! أم هي الحارسة الأمينة عليها الراعية لتحقيقها؟! قال الرسول ﷺ ("مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً" رواه البخاري (٢٣٦١).

لعل هذا التشبيه الذي ساقه الرسول (هو أبلغ ما قيل في العلاقة بين الحريات والمصالح، فتقييد حرية المستهترين بالمصالح العامة حقق المصلحة للجميع من دون أن يسبب خسارة لأحد. وما القيم في الحقيقة إلا المصالح ذاتها، غير أنها مصالح عامة يستفيد منها الجميع، أما المصالح الخاصة، فقد تكفلت القيم والشرائع والقوانين برعايتها، ما دامت لا تمس حقوق الآخرين ولا تضر بمصالحهم، "وحيثما وجدت المصلحة فثمّ شرع الله".

فليكف أهل المصالح عن التضحية بالقيم الإنسانية لتحقيق مآربهم الخاصة، فالمصالح التي يحصلون عليها من دون التزام بالقيم لن تدوم لهم، ولن تلبث القيم أن تستخلصها منهم لتردها إلى أصحابها وهم صاغرون، أما التي تتحقق لهم عن طريق الالتزام بالقيم فهي الأجدر بالاستمرار والأقدر على البقاء.

ذلك قانون الله {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً *} [الفتح: ٢٣/٤٨] .

وذلك ما سنحمله إلى فرانكفورت لتتحقق المصلحة للجميع، ويعلو صوت الحوار الثقافي البنّاء.

الثقافة العربية المقهورة يدعمها البسطاء

٢٠٠٤/٩/١٥

ثلاثة أسابيع قبل المعرض

عندما فكرت بإقامة فعاليات ثقافية في معرض فرانكفورت، تتجاوز الكتاب، رحب الأصدقاء الألمان بـــالفكرة، نظراً لاحترامهم المعهود للجهود الأهلية (غير الرسمية) في كل الشؤون عامة، وفي الشأن الثقافي على وجه الخصوص. غير أنهم سرعان ما سألوني: هل تدبرت أمر التمويل؟

ذلك أنهم، بحكم خبرتهم، يعرفون أن الناشر وخاصة إذا كان في بلد نامٍ لا يقرأ، وكان له مشروعه الثقافي المعلن، ومنهجه التثقيفي التنويري الذي يلتزمه، يكاد لا يوفر لمؤسسته احتياجاتها المالية إلا بصعوبة بالغـــة، وأن النشـــر في البلدان النامية يعد مغامرة تجارية صعبة، تحتاج إلى مال قارون وصبر أيوب وعمر نوح ومخازن يوسف، مما يجعلها أبطأ الرساميل دوراناً، وأن أي نشاط ثقافي يتجاوز الكتاب، يقوم به الناشر أو غيره. يحتاج إلى دعم من المؤسسات الماليـــة ورجال الأعمال، حتى إنك تكاد لا تجد جائزة أدبية، أو منحة دراسية، أو ندوة ثقافية، أو مؤتمراً علميـــاً، أو موقعـــاً على الإنترنت إلا وقد ذيل بعلامات الراعين الداعمين له مالياً(Sponsors) ، يعدون دعمهم له عملاً خيرياً، أو واجباً أخلاقياً، أو إعلاناً تجارياً، يحتل حيزاً رئيسياً في ميزانياتهم، لا منة لهم فيه.

لم أحفل بسؤالهم، إذ لم أكن أحمل همَّ التمويل وأنا أخطط لفعاليات (منتدى الفكر للحوار)، بقدر ما كنت أحمل همَّ اختيار الأكفياء للقيام بأنشطة المنتدى.

وكان ما يزال يتملكني إحساس غامر بأهمية الحدث، وأن اختيار العالم العربي والثقافة العربية الإســـلامية ضـــيف شرف على معرض فرانكفورت ٢٠٠٤، قد خرج بالمشاركة العربية من صيغة معرض كتاب يخص المعنيين بـــه، إلى صيغة معرض ثقافة يهم كل معني بمأساة أمته مرتبط بثقافتها، وأن علي أن أبذل طاقتي في توفير المناخ الملائم لعـــرض هذه الثقافة، بصفتي أحد أبنائها المهمومين بمعاناتها.

ومضيت، لا أترك فرصة تسنح لي، على موقع دار الفكر على الإنترنت، وفي كل مناســـبة ومنتـــدى، ومقابلـــة إعلامية، ومجلس خاص أو رسالة شخصية، إلا وأعَرِّف بالمعرض وأبشر به، وأوضح أهمية الحدث، أحلم في أن أرتقي به إلى مصافِّ القضايا العامة، مثل أي حدث دولي: كمباراة رياضية ننافس فيها على كأس العالم، أو مسابقة أدبيـــة نتطلع فيها إلى الفوز بجائزة نوبل، أو مهرجان سينمائي نرنو إلى حجز مكان لنا فيه، أو حتى مسيرة إلى الأمم المتحدة نعبر فيها عن قضيتنا.. أطمع في أن أتوغل به إلى ضمير كل فرد، ليندمج فيه ويتفاعل معه، فأنا أعتقد أنه أجدر مـــن سوبر ستار لكي يحظى باهتمامه؛ يطرب لنجاحه، ويألم لإخفاقه..

وأعترف أنني وزملائي ممن شاطروني همَّ مباراتنا الثقافية في فرانكفورت، قد حققنا نجاحاً مرضياً نسبياً، في لفـــت نظر البسطاء من الناس، الذين لم ينخرطوا في زمرة رجال الأعمال، ومديري المؤسسات المالية التجاريـــة والصـــناعية الكبيرة. وأن مشاركتهم الوجدانية والعملية قد حوَّلت قروشهم المحدودة إلى دعم مادي ومعنوي غير محدود.

وأكد مجتمعنا بذلك قدرته على تجاوز القصور الذي أحدثه استئثار الجانب الرسمي بإدارة دفة المشاركة العربيـــة، وإحجام بعض دوله عن الوفاء بالتزاماتهم الأدبية والمالية؛ ربما ليؤكدوا للعالم حجم التنوع والتعدد والاختلاف الـــذي ننعم به في عالمنا العربي، إلى درجة التناقض والشذوذ أحياناً، والذي أحدثه كذلك شحُّ الأثرياء ورجـــال الأعمـــال العرب الذين يمكن للواحد منهم أن يتكفل بأعباء المشاركة كلها من دون أن تضارَّ أعماله بشـــيء. بـــل إن إنفـــاق

الواحد منهم بلا حساب على الفعاليات الأخرى غير المتعلقة بالثقافة، لينم عن مدى تقويمه لثقافة أمتــه، والمســتوى المتدني لها عنده، الذي يخرجها من دائرة اهتمامه..

وليسمح لي أثرياؤنا أن أهمس في آذانهم: إن ثقافة الاستهلاك وثقافة سوبر ستار ورالي،ثقافات مريضة أو كمالية، لا تقوى على بناء أمة، ولا على استمرارها بالتالي في شراء منتجاتكم..

وإن الآثار المترتبة على استشراء الأمراض الثقافية أشد خطراً، والكشف عن جراثيمها ومعالجتها أكثــر تعقيــداً وصعوبة من الأمراض الجسدية، فهي الأجدر بدعمكم..

وإن مساهمتكم في التنمية الصناعية للأمة، لا تغني شيئاً إن لم تندرج في إطار التنمية الشاملة التي تصــنع المجتمــع المتحضر، وتبني شبكة علاقاته، وتشكل وجدانه، وما التنمية الشاملة إلا تنمية الثقافة..

وإن مردود مساهمتكم في التنمية الصناعية يعود على المجتمع عن طريق صناديقكم، بينما إســهامكم في التنميــة الثقافية يعود إلى صناديقكم عن طريق المجتمع، والفرق كبير بين الحالين..

وإن كل مراكز الأبحاث، والمنح الدراسية، والجوائز والأنشطة الثقافية التي يزخر بها المجتمع الغربي، لا تمــوَّل مــن الميزانيات الرسمية للدول، إنما يمولها رجال الأعمال والشركات، ولا حرج أن يقطفوا ثمراتها وينتفعوا بمردوداتها، فهــم جزء من المجتمع مندمج به..

وإن القروش القليلة التي تقدمها طفلة من مدخراتها، وما يقدمه خيِّرون يصرون على عدم ذكــر أسمــائهم مخافــة الرياء، أوزن عند الله وأجدى في مباراة فرانكفورت من ملايينكم.

وإن الثقافة العربية المقهورة، ستذهب إلى فرانكفورت، بدعم من بسطاء المجتمع الذين لا يملكون غير يــد حانيــة يكفكفون بها دموعها، ريثما تلين القلوب القاسية على وقع التحديات المهينة التي تلاحق العربي المقيم والمغترب علــى حد سواء..

الحوار في عصر الجينوم البشري

٢٠٠٤/٩/٢٢

أسبوعان قبل ذهابنا إلى فرانكفورت

يتملكني ما يشبه الخوف من الذهاب للتحاور في فرانكفورت..

أشعر أن حوارنا مع الغرب في عصر العولمة والمعلوماتية والتحول إلى اقتصاد المعرفة، أشبه بحوار طرشــان، فهــو حوار غير متكافئ؛ بين مجتمع يقف على أعلى درجات ارتقائه الحضاري، يقطف ثمرات جهده وكده، ومجتمع يعيش أسوأ لحظات انتكاسه الحضاري؛ يتوجه بأسماله ليبادل بما ورثه عن الآباء، بعد أن توقف عن الإنتاج أجيالاً، فلا يجد من يبادله بإرثه إلا في سوق الصناعات التقليدية والتراث الشعبي، أو في أسواق النخاسة..

أشعر بفرق كبير بين مجتمع قارئ، منظم، مخطط، استكمل بناء شبكة علاقاته، ومجتمع عــازف عــن القــراءة، عفوي، ماضوي، لحظي، مفكك، يقتات الفتات، كالكل على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير..

هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟!

يتصور البعض حوارنا مع الغرب في فرانكفورت، تحولاً من عصر الحرب والاستعمار والمواجهة العسكرية، إلى عصر السلم والتفاهم والتعايش بين الشعوب، وأتصوره مواجهة أشد ضراوة وأفدح خطراً وتأثيراً.. لكنها مواجهة من نوع مختلف!!

فإذا كانت قوة السلاح والعتاد، وقوة المال والاقتصاد هي أدوات المواجهة في عصر الاستعمار خلال القرنين المنصرمين، فإن قوة المعرفة وثروة المعلومات وشبكات الاتصال هي أدوات المواجهة في الألفية الثالثة التي نعيش بداياتها ونستشرفها، من دون أن ندرك أهمية هذا التحول في الأدوات..

لقد بدأ العالم منذ عقود يتغير بسرعة مذهلة ليبدأ مرحلة جديدة من مراحل سعيه للارتقاء بعد عصر الغاب والرعي والزراعة والصناعة، فهو الآن يجتاز منعطفاً خطيراً يتحول به إلى عصر اقتصاد المعرفة، وشأنَ كل منعطف خطير؛ فإن الحوادث المروِّعة تنتظر كل من لا يتقن فن اجتياز المنعطفات، ولا يتقيد بقواعد المرور فيها، ولا يتأهب للتكيف مع متطلبات الاتجاه الجديد. وإذا كان لكل عصر قوانينه وقواعده وأدواته، التي لا تصلح إلا له، وتنقرض معه، فإن حجم المتغيرات، والسرعة المطلوبة للتحول إليها في عصر المعلومات الذي نعيش، هو من الضخامة والشمول بحيث لا يترك مجالاً للكسالى والمتثائبين والمترددين الذين ينتظرون نتائج تجارب الآخرين، وسرعان ما يرمي بهم خارج التاريخ في زاوية من زواياه المهملة. كما إن اتساع نطاق العولمة مع ثورة الاتصالات، قد مزق الأستار وكسر الحواجز وهدّم الجدران وألغى الحدود والفواصل بين الأمم والشعوب، وقلَّص من مفاهيم الخصوصية والسيادة، حتى لم يعد بوسع أحد أن يضرب من حوله طوقاً، أو ينصب لنفسه خيمة، أو يقيم ستاراً حديدياً، أو يدخل في قوقعة، أو يأوي إلى جبل يعصمه من الماء.

لقد أدركت أوروبة متطلبات العصر الجديد فبنت اتحادها الأوربي على أسس متينة من الحوار البناء، بعد أن سئمت من الحروب التي أشعلتها فيما بينها قروناً، ولئن ظلت أميركا – على الرغم من تفوقها في تكنولوجيا المعلومات – تتعامل مع الأحداث بأدوات العصور السالفة، معتمدة على تفردها بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وتغض الطرف عن بناء الجدار العازل في فلسطين بعد أن فرغت من هدمه في برلين، فإن منطق التاريخ كفيل بإعادتها إلى صوابها، وإقناعها بقدرته على تصحيح المسار، وأنه يرفض السير بالإنسان إلى وراء.

إن التغيير قادم لا محالة، ولسوف يتغير في الإنسان كل شيء: عاداته وتقاليده وأذواقه، وأساليب عيشه، وسلوكه، وردود أفعاله، وأدواته، ووسائله، ووسائط نقله، وأنماط تفكيره، وطرق تعليمه.. وما لم يدرك الإنسان هذه المتغيرات ويمتلك ناصيتها ويسيطر عليها، فلسوف تبتلعه في خضمها، وتصهره في أتونها.

هكذا رحنا بكل غباء نستخدم أدوات القرون الخوالي في مواجهتنا الراهنة مع الغرب، فاحترقت أصابعنا وشُلَّت أيدينا، وقدمنا لخصمنا الذرائع كي يتعامل معنا كمعتوهين، أو معاقين، أو أحداث جانحين، وها هو الآن يدعونا للحوار على طريقته، بعد أن أتقن فنون الترويض الإيديولوجي، وهيمنة الإعلام، وغسل الدماغ والغزو الثقافي، والهندسة الوراثية..

****

لا أسوق هذه المقدمات يأساً من المنبر المتاح لنا في فرانكفورت، ولا تثبيطاً عن استثمار الفرصة المتاحة لنا للحوار.. إنما أود لفت النظر إلى أهمية التنوع واختلاف الرؤى وتعدد وجهات النظر في الحوار المنتظر، وهو ما لم يفطن له منظمو المشاركة العربية، الذين ساقوا إلى فرانكفورت كل من يرطن بلسانها، ويتبنى نظرياتها ومناهجها، ويستخدم أساليبها ويتململ من ثقافة قومه التي انتدب لتمثيلها، إلا من رحم ربك، مما لن يعود على الثقافة العربية الإسلامية المستضافة إلا بالمزيد من التبعية والازدراء، فلن يحترم الغرب أناساً جاؤوا يبرؤون من شخصياتهم ليتقمصوا شخصيته.

و لم يفطن له كذلك الغالبية ممن يزعمون أنهم ممثلو الثقافة العربية الإسلامية، الذين اطمأنوا إلى خطابهم الذاتي المنغلق، يتوجهون به إلى جماهيرهم التي لا يزال يحشدها لهم الإيمان العميق المستقر في الضمائر أداءً لواجبات، وحفاظاً على شعائر انفصمت عن مقاصدها، فتخلفت عن إعطاء نتائجها، وغاب صوتهم عن المحافل الدولية، لعجزهم عن مخاطبتها، وجهلهم بمشكلاتها وهمومها، وانعزالهم عن مستجداتها، فكان نصيبهم فيها الإقصاء والتهميش. حتى إنك لا تجد منهم فيها من أحد أو تسمع له ركزاً.

لن يجدينا نفعاً في فرانكفورت خطابنا الماضوي المنفصم عن العصر، ولا الحداثي المقلِّد، فأهله الذين يملكون أصله أولى به.

لن نستطيع المنافسة بأيٍّ من الخطابين، ولا نملك من التكنولوجيا ما نستطيع أن ننافس به.

ليس الهدف من الحوار مع الآخر أن نتماهى معه ونذوب فيه، فسنحتاج للبحث من جديد عن آخر نحاوره.

لدينا منجم غير متناهٍ من القيم، هي كل ما نملكه اليوم، والغرب أحوج ما يكون إليها في أزمته الأخلاقية والفلسفية الراهنة، التي زينت له الشذوذ حتى أصبح عنده معروفاً وحقاً من حقوق الإنسان.

ولسوف يتقبلها شاكراً إذا أحسنا صقلها وعرضها عليه، لأنها من المشترك الإنساني المستقر في ضمير كل إنسان، فلندرك الإنسان، قبل أن يعمد الغرب في غمرة جموحه الراهن إلى تطبيق هندسته الوراثية على الجنس البشري، لينتج نسخاً بشرية متطابقة المواصفات حسب الطلب ضمن مشروعه الخطير للجينوم البشري، مثل الذي ينتجه في مصانع السيارات، فيدمر الإنسان.

فمن ذا الذي سيحسن العرض؟!

للحوار.. لا للشجار

٢٠٠٤/٩/٢٩

أسبوع واحد قبل فرانكفورت

وفي فرانكفورت سوف تلتقي ثقافتان: ثقافة الضيف العربية الإسلامية، وثقافة المضيف الغربية العلمانية.

من المؤكد أنهما ثقافتان مختلفتان إلى حد التباين، وأن تجربتهما التاريخية قد أملت عليهما صوراً نمطية لكل منهما عن الآخر؛ زعزعت الثقة وأوغرت الصدور. وأن علاقاتهما الراهنة تعاني أعلى درجات التوتر والتوجس والارتياب، وأن التكافؤ بينهما في المستوى الحضاري منعدم إلى درجة التفاوت بين من يعتلي الذروة ومن يقبع في الحضيض..

هل ستتمكنان من تجاوز تناقضاتهما حين تجتمعان تحت سقف واحد، وتستنشقان نسائم الحرية والعقلانية، وتبحثان عن المشترك الإنساني بينهما في فرانكفورت؟!

إن المناخ الأوربي بات أكثر ملاءمة لهذا التجاوز، بعد أن أغمدت أوربة سيوفها، مدركة أن الحرب تؤجج المشكلات وتعقدها بدلاً من أن تحلها. فانتقلت بذلك من ثقافة الكراهية والشجار، التي أشعلت بنارها حروباً ضارية فيما بينها، امتدت لتشمل العالم كله في الحربين العالميتين الأولى والثانية، إلى ثقافة التكامل والحوار التي بنت على أساسها وحدتها الأوربية، فهل ستبني على أساسها علاقاتها مع الآخرين كذلك؟!

إذا كان نسق الحضارة الغربية، المنطلق برمته من الفلسفة النفعية البراجماتية، سيمضي وفق نظريات فوكويوما في نهاية التاريخ، وهنتنغتون في صراع الحضارات، التي تجتهد أميركا في تعميمها على العالم لبناء إمبراطوريتها الجديدة المتفردة المتغطرسة تحت ستار العولمة ، فلن يحصد العالم غير المزيد من البؤس والدمار، كالذي يعانيه في فلسطين والعراق وغيرهما من بقاع العالم، ولسوف تكون أورروبة إحدى ضحايا الجموح الأميركي الراهن الذي لا يخفي غطرسته واستئثاره ورفضه لأي وجود لآخر خارج عن طاعته، بما في ذلك أورروبة (أمه) التي يصفها بالقارة العجوز، ويخضعها لذات معايير التفرد؛ من لم يكن معنا (تابعاً لنا مطيعاً لأوامرنا) فهو ضدنا (سيتلقى نصيبه من ضرباتنا الموجعة).. أية عولمة؟! وأية ديمقراطية ؟! وأية علاقات دولية وإنسانية ستقوم على ثقافة الكراهية والشجار هذه؟!

هكذا تضع العولمة الأميركية أوربة في خندق واحد معنا، على الرغم من التفاوت الحضاري والإيديولوجي بيننا، يجمعنا التهديد الأميركي المشترك الذي يستهدف الهوية والخصوصية الثقافية لكل منا، يخطط لاقتلاعها من جذورها، وتنفيذ سياساته في الاستتباع والإلحاق..

وهكذا تدفع أوربة ثمن انطلاقها الأعمى من فلسفة المنفعة المادية الذي أقامت عليه نموها الرأسمالي في إطار الفردية والمنافسة.

إننا نعرف يقيناً أن النمط الأميركي من الحضارة الغربية ليس كنظيره الأوربي، وأنه بتنكره لأصوله بدا كاللقيط لا يعرف له أصل وأن فكر النهضة الأوروبية قد تضمن الكثير من القيم الإنسانية والتنويرية، التي لم تلبث أن اهتزت تحت وقع فلسفاتها المادية النفعية والعلمانية، فتجاهلتها وتناقضت معها عند التطبيق، كأنها كانت تحمل في طياتها بذور شيخوختها واعتلالها. وهو ما يجعلها اليوم أحوج ما تكون إلينا لتقويم مسارها والخروج من أزماتها.

فعلى العكس مما تقتضيه فلسفات النفعية الغربية والنسبية الأخلاقية من الكيل بمكيالين؛ واحد للذات وواحد للآخر، ومن علاقات الاستعمار والاستثمار مع الآخر، فإن ثقافتنا القرآنية تلزمنا بالكيل بمكيال واحد لنا وللآخر، وبالوزن بالقسطاس المستقيم، وبالتزام جانب الحق والعدل والدفاع عنهما، وباجتناب الباطل والظلم ومحاربتهما، وبالحوار مع الآخر، بالحجة والبلاغ المبين، نَعُدُّه مرآة لنا؛ يكشف لنا عيوبنا، ونكمل بما عنده نواقصنا، ويكتمل هو بنا، فهو ضرورة نبحث عنها لنحاورها ونتكامل بها ومعها، وليس عدواً نتشاجر معه لاختبار عضلاتنا وإثبات قوتنا وبطشنا.

إن العولمة الأمريكية الراهنة، قد ضربت عرض الحائط بكل القيم الأخلاقية، وأفقدت الإنسان كل مكتسباته التي حققها خلال قرون الصراع والمكابدة؟، ووقفت حائلاً ضد تحقيق أي مطلب إنساني يحقق تقدماً للبشرية على طريق

إنهاء الحروب وسفك الدماء، ونزع أسلحة الدمار الشامل، والحفاظ على البيئة، والحد من التلوث، فكل ذلك مطلوب من الآخر فقط، وأميركا مستثناة منه، مما أفقد خطابها أي مصداقية في العالم، ووضعها في المرتبة الأولى لتكون أكبر ممثل لثقافة الكراهية والشجار، وجعل منطقها يفتقر إلى الحد الأدنى من العقلانية، وضرورات التعايش الإنساني.

فهل ستغتنم أوربة فرصة وجودها معنا في خندق التحدي، فتنقب في منجمنا الغني بالقيم، بحثاً عما تدرأ به عن نفسها خطر الانصهار في بوتقة الهيمنة الأميركية، والاندماج في ثقافة الكراهية والشجار؟!

هل ستستطيع أوربة أن تستعيد أمومتها للحضارة الغربية التي فقدتها، عندما مزقت الروابط الأسرية، وشجعت الأبناء على التمرد على آبائهم ليلة بلوغهم سن الرشد، كالقطط التي تأكل أبناءها؟!

قيمة هذا المنجم الفكري الغني بالقيم التي أرساها القرآن العظيم، الذي تتمحور حوله ثقافتنا، أنه ملك مشاع للإنسانية جمعاء، لا يختص به شعب دون آخر، أو أمة دون أخرى.

لقد استطاع هذا المنجم القرآني أن يبني أمومة تُعِدّ أبناءها للتفوق عليها، وتسعد بتفوقهم؛ ترى فيه امتداداً لوجودها، وإثماراً لجهودها، واستمراراً للتقدم الإنساني تتواصل فيه الأجيال عبر الترابط والتراحم، بدلاً من التناكر والتزاحم.

إنها ثقافة التفاهم والتعايش والتعارف والتكامل؛ أرساها القرآن العظيم عبر سلسلة من القيم، تبدأ بإقرار مبدأ التعدد والتنوع والاختلاف، وقبول الآخر وسيلة من وسائل اطراد الحياة ونموها، واعتماد الحوار طريقة للتواصل وفض النزاعات وحل المشكلات؛ وضع له قواعد صارمة تقوم على التجرد، والصدق، وطلب الدليل، والبرهان، والموضوعية، والعلم، والبعد عن التناقض، والأدب مع الآخر، واحترام رأيه، والانطلاق بالحوار معه من دون مسلمات مسبقة، والتزام جانب الحق عندما يتضح وتقوم به الحجة، والبعد عن المكابرة بالباطل.

لقد بلغ من رسوخ ثقافة الحوار في ضمير المسلم، ما روي عن الإمام الشافعي من قوله: "رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي المخالف خطأ يحتمل الصواب"، وما روي من قول أبي حنيفة النعمان: "قولنا هذا رأي، هو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا".

إننا نحن أهل الحوار..

ثقافتنا ثقافة الحوار..

وها نحن ذاهبون إلى فرانكفورت،

وقلوبنا مفتوحة للحوار..

إدماج النشر العربي في إطار النشر العالمي

المقومات والحلول

٢٠٠٤/١٠/٤

* من المؤكد أن الفكر بطبيعته فوّاح، لا يطيق الانحباس في القماقم، سواءً أكانت وطنية أو لغوية أو إيديولوجيـــة، ومهما أحكم إغلاقها عليه، فإنه سرعان ما يحطمها متجاوزاً سائر الحدود والقيود والحواجز والوصايات، لينطلق حراً طليقاً، ينتشر وينمو فيحقق للإنسانية تقدمها وارتقاءها المنشود في صراعها الأبدي مع الشر والفساد وسفك الدماء..

فليس للفكر وطن، ولا لغة، ولا دين ..

* ومن المؤكد أنه ملك مشاع بين بني البشر، من سبق إليه وأبدعه ملك حقوق إبداعه واستثماره إلى حـــين، دون حق حبسه وإخفائه أو كتمانه ودفنه سراً في ذاكرة صاحبه، فسرعان ما يضطر للبوح به مرغماً تحت ضغط طبيعتـــه الفواحة، وقدرته الخارقة على الإفلات من القيود، مثلما أفلت من قبضة محتكري الصناعات الكيميائيـــة التقليديـــة، وأبحاث الذرة، وسائر الأسرار...

فالفكر عصي على الاحتكار

* ومن المؤكد كذلك أن بين الفكر وبين الحضارة علاقة تفاعلية، فهو عامل من عوامل نشوئها وارتقائها، وهـــي عامل من عوامل نموه وازدهاره، فإن هي أدركتها الشيخوخة، وأخلدت إلى الراحة فجمدته وقيدته، غـــرب عنـــها وهرب منها إلى أرض بكر وأمة أكثر شباباً توفر له المناخ الأكثر ملاءمة لنموه.

فالفكر دُولة بين الأمم، تتداوله بحسب المستوى الحضاري الذي ترتقيه

* والفكر إنما ينتشر ويتكاثر وينمو بالقراءة الحرة المتعددة الواعية، التي تزاوج بين الآراء لتستولد منـــها أفكـــاراً جديدة،

فا لتعدد والاختلاف شرط من شروط نمو الأفكار وتكاثرها.. والفكر الأحادي والثقافات المنغلقة علـــى نفســـها عقيم لا تنجب.

ولعلنا على ضوء هذه المعطيات الأربعة: الحرية والشيوع والتحضر والتعدد، نستطيع أن نحدد واقع حركة النشـــر العربية، وموقعها من النشر الدولي، والعلاقات الثقافية بين الجنوب والشمال، والصعوبات التي تعيق اندماج الناشـــر العربي في إطار النشر الدولي وسبل تذليلها.

* فحركة النشر العربية ما تزال في طور التشكل، لم ترسِ قواعدها، ولم ترسِّخ تقاليـــدها، ولم تـــبن مؤسســـاتها وروابطها المهنية المتينة بعد، مما أضعف قدرتها على احتواء الأزمات وتذليل الصعوبات التي تواجهها، وهي صعوبات يأخذ بعضها برقاب بعض، وتتبادل فيما بينها التأثير والتأثر.

ثمة أزمة عزوف قرائي، تُنتحل لها أعذار واهية، تبدأ بارتفاع نسبة الأمية في الوطن العربي، وبانخفـــاض مســـتوى الدخل، وتعقد سبل المعيشة، لم تتحرك لها الأجهزة المعنية الرسمية أو المجتمعية لاحتوائها.

وثمة أحادية في الفكر، أفرزت وصايات على القارئ، ورقابات متباينة على الكتاب؛ سياسية واجتماعية ودينيـــة ووطنية، قيدت حركته، وزادت من تضييق ساحة انتشاره.

وثمة استئثار حكومي بنشر الكتاب المدرسي والمساعد، حرم الناشر العربي من مجال واسع للنشر، وأضعف قدراته، مثلما حرم الطالب نفسه من متعة التعدد والتنوع.

وثمة عوز في الإبداع، جَمّد الأفكار، وحصرها في الموروث والمتعارف عليه، مما أسبغ عليها الصبغة المحلية والماضوية، والخطاب الداخلي غير القابل للتصدير والتداول في سوق الثقافة العالمية.

* وموقعنا من النشر الدولي، يكاد ينحصر في دور المتلقي عن طريق الترجمة لما قد يلتقطه من الإنتاج الثقافي العالمي، هذا الموقع الذي بالإضافة إلى أنه يسير في اتجاه واحد، فإنه يتسم بالعشوائية، وقلة الاحترام لحقوق التأليف، وضعف الترجمة، وتعدد الترجمات أحياناً للعمل الواحد، وغياب المعايير. يستوي في ذلك الناشرون الرسميون الحكوميون، ومعظم الناشرين إلا من عصم ربك. وهؤلاء المعصومين بدورهم يئنون- وهم يحرصون على شراء حقوق الترجمة والطبع- من وطأة الشروط القاسية التي يفرضها عليهم مالكو الحقوق الأصلية، يخضعونهم للنماذج ذاتها من العقود المعدة لمجتمعاتهم، دون مراعاة لوضع الناشر المحلي الخاص، الذي لا يستطيع أن يجاريهم لا في عدد النسخ المطبوعة، ولا في السعر المرتفع الذي يحددونه للنسخة، فضلاً عما يعانيه من أعباء الترجمة غير المدعومة، ومن فوضى السوق غير الملتزم الذي قد يفاجئه بترجمات غير مأذونة تصدر قبل أن ينهي إجراءات تعاقده مع المالك.

مما اضطر بعض الناشرين للتعاقد مع المالكين بشرط تزويده مسبقاً بالمخطوط لترجمته قبل النشر، من أجل أن يصدر الكتاب بلغته الأصلية وباللغة المترجم إليها في وقت واحد، لتفويت الفرصة على القراصنة.

والعلاقات الثقافية بين الشرق والغرب، أو ما أصبح يدعى بالشمال والجنوب، ما فتئت تسير مع المرحلة الحضارية التي يجتازها كل منهما، تهب رياحها من الشرق أحياناً باتجاه الغرب، ثم لا تلبث أن تغير اتجاهها من الغرب إلى الشرق، كالذي تفعله الآن.

فلئن كان الشرق العربي هو المتلقي في مرحلته الراهنة، فقد سبق له أن قام بدور المرسل، إبان ازدهاره الحضاري الفذ، الذي بدأه مصغياً لنداء {اقْرَأْ} الذي انطلق مدوياً من غار حراء فراح يجوب الآفاق بحثاً عن المعرفة، يجلب كتبها من كل صوب، وبأي لغة، ويقيم لها بيت الحكمة ؛ يصنف ويترجم ويحلل ويصهر ويركب؛ ليعيد إنتاجها مطبوعة بطابعه خاضعة لمناهجه، فيقيم بها حضارة وارفة الظلال، تقوم على إعمال العقل وإجلال العلم، فتسطع أنوارها على العالم كله، كما يبدو جلياً في اللوحات الثلاث التالية:

١- الكتب المحرمة يجلبها المأمون من قبرص

- المأمون بن هارون الرشيد (-٨٣٣م) من أعظم الخلفاء العباسيين.. اهتم بالعلوم كثيراً.

- فتح المسلمون في زمنه جزيرة قبرص.

- لم يفرض الخليفة على أهلها ضرائب مالية وإنما طلب عوضاً عنها أحمالاً من الكتب (المخطوطات) التي اشتهرت بها الجزيرة.

- كانت الكنيسة قد أفتت بتحريم تداول هذه الكتب الفلسفية فجمعتها في مستودع آمن، وضعت عليه الأقفال الثقيلة، خشية الكفر والضلال.

- فرح الأساقفة والملك بهذا الطلب، لأنهم رأوا فيه ربحاً مزدوجاً؛ يتخلصون به من عبء تخزين كتب الكفر ويرمون بضلالاتها الفاتحين.

- كانت فرحة المأمون أشدّ؛ أمر بترجمتها مباشرة، ثم وضعها بين أيدي العلماء في مكتبة "بيت الحكمة"..

وبقيت للأجيال القادمة ذخراً.

[د. يوسف العش:دور الكتب العامة وشبه العامة]

٢- المأمون يزن الكتب بالذهب

- خصص الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (-٨٣٣م) مكافآت سخية لتأليف الكتب وترجمتها.

- فكان يعطي صاحب الكتاب وزنه ذهباً.

- ولهذا أخذ بعض المؤلفين أو المترجمين يختارون لكتبهم أوراقاً سميكة جداً، ويكتبونها بقلم غليظ بالخط الكوفي، يباعدون بين السطور، ويجلدونها التجليد الثقيل، ليزيدوا في وزنها، ويستزيدوا من الذهب..

- فكان المأمون يعرف بذلك، ويرضى.

- كان ذلك في أوج نهضة علمية شعت أنوارها في الشرق والغرب.. وامتلأت مكتبات بغداد والعواصم بالكتب.

[د. يوسف العش:دور الكتب العامة وشبه العامة]

٣- بعثة بنات الإنكليز إلى الأندلس في رسالة ملك بريطانية إلى هشام بن الحكم

صاحب العظمة هشام الجليل المقام

بعد التعظيم والتوقير، فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء آثاركم، لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يجتاحها الجهل من أركانها الأربعة.

وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة بنات الإنجليز للتشرف بلثم أهداب العرش، والتماس العطف، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من لدن اللواتي يشرفن على تعليمهن، وقد أرفقتُ الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها.

مع التعظيم والحب الخالص

من خادمكم جورج

ملك بريطانية

[الاستذكار الجامع لمذهب فقهاء الأمصار في ما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار، للإمام محمد بن عبد البر]

هكذا تبدو العلاقات الثقافية حتى الآن، تسير على خط واحد بين مرسل لا يستقبل إلا نادراً، ومستقبل لا يرسل إلا نادراً. فهل ستسير هذه العلاقات في الاتجاهين، في عصر العولمة وثورة المعلومات والاتصالات وعصر اقتصاد المعرفة؟!

هل لدى الثقافة العربية ما تقدمه للثقافة الغربية مقابل ما تأخذ منها؟!

إن حجم الكتب المترجمة إلى اللغة الألمانية لكتّاب عرب لا يتعدى ٥٠٠ كتاب قصصي أقل من نصفها ترجم من العربية، وغالبيتها تمت ترجمته من الفرنسية التي كتبت بها من قبل كتّاب وكاتبات مقيمين في فرنسا، ويتنفسون في أجوائها الأدبية والفكرية، وهكذا فإن القارئ الألماني الذي يجد بين يديه ١٢٥٠٠٠ كتاب أدبي ٤٠% منها مترجم،

نسبة المترجم من العربية منها لا تتجاوز ٠.٣% [حسب بيتر ريبكن]، وهي أعمال لأقل من خمسين كاتباً عربياً أكثرهم من مصر ثم لبنان وفلسطين والمغارب وسورية والعراق بالترتيب، وكاتب واحد من كل من الكويت والسعودية والسودان وليبيا، وكلها في النوع الأدبي الذي تتصدره القصة القصيرة فالرواية فالشعر فالمسرحية، [حسب عبده عبود].

هذا عن الترجمة إلى الألمانية التي يحظى فيها الأدب العربي، والثقافة العربية باهتمام خاص، أما الترجمة إلى اللغات الأخرى، ومنها الإنكليزية ذات الانتشار الأوسع، فهي أقل من ذلك بكثير. مما يؤكد أن حضور الأدب العربي في الساحة الثقافية الغربية لا يكاد يشكل نسبة تذكر. أما حضور الأدب الغربي في الساحة الثقافية العربية فهو أحسن حالاً، وإن كانت تتناوشه سهام القرصنة الفكرية، واستباحة حقوق المؤلف، ويعتريه ما يعتريه من فوضى وضعف في الترجمة..

وهكذا فإن ما اتسم به التبادل الثقافي بين الغرب والشرق من فتور وقصر، لم يساعد على بناء علاقات قوية بين الناشر العربي والناشر الغربي، وأسهم في تحويل الناشر العربي إلى مجرد ناشر محلي، لا يكترث بسوق النشر الدولي، ولا يشعر بأهمية التواصل معه، ولا يعرف شيئاً عن بيع حقوق الترجمة والطبع والنشر، وبالتالي فإن معرض فرانكفورت للكتاب قد لا يهمه.. مما يؤكد ضرورة البحث عن العوائق، والحلول الناجعة لتذليلها.

إن إدماج الناشر العربي في سوق النشر الدولي تعتوره عوائق، أهمها:

* انعدام الرغبة لدى الناشر الدولي بترجمة الأدب العربي ونشره، ربما بسبب صعوبة إثارة اهتمام القارئ الغربي بهذا النوع من الأدب، إما لعدم مطابقته للمعايير الأدبية الغربية، أو للصورة الشوهاء المستقرة في الذاكرة الغربية عنه، أو لجهله بهذا الأدب، وغياب التعريف به في دوريات المراجعة الأدبية، أو للخوف من الأعباء المالية للترجمة مما يجعل نشر الكتب المترجمة عنه مغامرة تجارية غير مأمونة.

* التركيز في الطلب على النوع الأدبي (القصة والرواية والشعر والمسرحية)، والاهتمام فقط بالمشاهير من الكتاب والروائيين الذين نالوا جوائز دولية مثل نجيب محفوظ، وهذا يعني أن على الناشر العربي الذي ينشر القصة والرواية أن ينتظر فوز كاتبه بجائزة. أما الذي يكتفي بنشر الثقافة الإنسانية في الفكر والفلسفة والأخلاق والتاريخ والرحلات والسياسة ومشكلات الحضارة والفنون، فليس له أن يطمع بطلب على كتبه.

غير أن أحداث أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ لفتت الأنظار إلى العالم العربي والثقافة الإسلامية، وأحدثت لدى الإنسان الغربي شعوراً بأن المعلومات التي أمده بها المستشرقون ومراكز الأبحاث عن هذه الثقافة لم تكن كافية، وأثارت لديه الرغبة بمعلومات أكثر عمقاً تمكنه من التعرف على مكوناتها ومكنوناتها.

كما أن النزوع إلى العولمة، والحوار بين الحضارات، بات يشكل دافعاً قوياً آخر للتحرك من أجل إدماج النشر العربي في إطار حركة النشر الدولية والتبادل الثقافي.

هذا التحرك الذي يتطلب من الناشر:

١- أن يخرج بإصداراته من إطار الخطاب المحلي إلى الخطاب الإنساني.

٢- أن يعنى بالتعريف بكتبه، بواسطة مستخلصات باللغات الأجنبية خاضعة للمعايير الدولية لبيان المواصفات البيبلوغرافية للكتاب ونبذة مختصرة عنه.

٣- أن يوسع من ثقافته واطلاعه على حركة النشر العالمية، ويعمل على بناء علاقات مع الناشرين الدوليين، والتدرب على بيع الحقوق الذي يشكل له سوقاً إضافية إلى جانب بيع الكتاب.

٤- أن يتواصل مع دوريات التعريف بالكتب، ومراكز الأبحاث للإعلام والإعلان عن كتبه، وإهدائها للجامعات إذا لزم الأمر، واستخدام شبكة الإنترنت لهذا الغرض.

منتدى الفكر للحوار

في فرانكفورت

٢٠/١٠/٢٠٠٤

لم يهدأ لدار الفكر بال، منذ أعلن معرض فرانكفورت للكتاب قراره باستضافة العالم العربي والثقافة العربية الإسلامية ضيف شرف عام ٢٠٠٤، على الرغم من اعتيادها المشاركة في هذا المعرض كل عام.

فقد أحست بأن هذه الاستضافة ارتقت بالمشاركة العربية من مستوى معرض كتاب يهم المعنيين به من ناشرين وكتّاب إلى مستوى معرض ثقافة يهم كل معني بثقافة أمته.

فأنشأت نافذة لمعرض فرانكفورت على موقعها على الإنترنت، وأصدرت كراساً للتعريف به، واستنفرت الكتّاب للإسهام بما يستطيعون فيه، واستكتبت عدداً منهم في موضوعاتٍ خاصة به، واقترحت على اللجنة المنظمة للمشاركة العربية أسماءً وموضوعات وفعاليات، تنبثق من إيمانها المنهجي الراسخ بالتعدد والتنوع الشامل لكل الأطياف الفكرية والثقافية في المجتمع.

ومن منطلق إحساسها العميق بالمسؤولية عن استثمار هذا الحدث الاستثنائي، رأت أن تسهم فيه بجهود خاصة، إسهاماً تدعم به الجهد الرسمي، وتحقق للقطاع المهني حضوراً فعالاً في النشاط الثقافي، لم يتحه له الجناح العربي الرسمي، فأقامت -بدعم من أصدقاء الثقافة العربية من الأفراد البسطاء - منتدى الفكر للحوار، وضعت له برنامجاً حافلاً تضمن محاضرات وندوات وقراءات أدبية وشعرية، ومحاضرات (بوربوينت) على شاشة الكمبيوتر، وأفلاماً وثائقية عن العمل الطوعي الاجتماعي في دمشق، وعن نماذج نسائية إيجابية من سورية، وعن أسئلة الأجيال الواعدة من الشبان والفتيات، وعن الرؤى الفكرية لعدد من المفكرين من الجنسين، وعن الطب العربي الإسلامي.

وقد أسهم في محاضراتها أساتذة كبار، بعضهم ألمان كالسيد مراد هوفمان، وبعضهم عرب سوريون كالدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والأستاذ جودت سعيد، والدكتورة فريال مهنا، والدكتور نبيل مهايني، والسيدة سحر مهايني، والسيدة رندة حموي، وغير سوريين كالدكتور عبد الوهاب المسيري والدكتور محمد سليم العوا والدكتور أحمد عبد الله والأستاذة هبة رؤوف عزت والأستاذ فاضل سليمان.

وحرصت أن تقدم محاضراتها وندواتها باللغة الألمانية أو الإنجليزية مباشرة، أو بترجمة فورية أو متلاحقة إليهما، لاجتذاب الزوار الألمان خاصة والغربيين عامة.

وقدمت لزوارها آلافاً من النسخ لمطبوعات مجانية باللغتين الألمانية والإنجليزية، مثل كتاب (الإسلام والغرب) للدكتورة رنا قباني و (الإسلام والغرب) لمراد هوفمان، وديوان (قلبي يدق في ألمانية) لرندة حموي و (خطوة إلى الأمام) لسحر مهايني، و (أوربة من التقنية إلى الروحانية) للدكتور البوطي و (مستقبل الإسلام في عالم متغير) له أيضاً، وكتاب (نبذ العنف) لجودت سعيد، وأبشورات تحمل عناوين (لماذا نحن هنا؟) و (ماذا قالوا عنه؟) وقرص CDبعنوان (رمضان في دمشق) للألمانية كريستين هيلبرغ، وغير ذلك كثير.

كما قدمت لزوارها ضيافة من الحلوى الدمشقية، وقام عدد من الفتيات الألمانيات والسوريات باستقبال الزوار والتحاور معهم بلغاتهم.

لقد تحاشتنا كاميرات الفضائيات ووسائل الإعلام، نتيجة لعقدة التمييز المزمنة بين الرسمي والمهني، ولم نكن نحن نبحث عنها على قناعتنا بأهمية دورها، إنما كانت عيوننا تتابع ذوي البشرة الشقراء والعيون الزرقاء من الرجال والنساء الغربيين؛ نتواصل معهم، لنقدم لهم صورة أنقى عن ثقافتنا العربية الإسلامية؛ قدراتها غير المحدودة على قبول الآخر والتعايش معه، ونبذها للتعصب والتمييز بكل أشكاله، وتطلعها إلى عالم بلا عنف يسوده العدل والرخاء.

إننا نعترف بأن الهمَّ الثقافي قد استأثر باهتمامنا وشغلنا عن التواصل مع الناشرين الغربيين، وفتح سوق عريضة للترجمة من العربية إلى الألمانية واللغات الأخرى، وهذا بدوره غرض هام من أغراض المعرض والشأن الثقافي لا بد من تداركه..

لكنها الأمانة الثقافية التي نرجو أن نكون قد أديناها على الوجه الذي يتيح لأمتنا أن تحصده، انفتاحاً على الآخر، ورغبة في التحاور معه، لتحقيق مزيد من التفاهم والتفاعل والتكامل، في عالم ينتكص على عقبيه ويتخلى عن مكتسباته الإنسانية، جرياً وراء نظريات فوكوياما وهنتنغتون..

منتدى الفكر للحوار

في وسائل الإعلام

١- في موقع كلنا شركاء على الإنترنت، كتب حسام شاكر الموفد الخاص لخدمة قدس برس بتاريخ ١٣/١٠/٢٠٠٤:

وفيما كانت بعض الأجنحة الرسمية عاجزة عن التواصل مع الزائرين بخلفياتهم المتنوعة، وبخاصة مع الألمان المتحدثين بلغة غوته، فإن الحلبة لم تفتقر إلى مشاركات ناجحة في الجانب العربي غير الحكومي. من بين تلك المشاركات؛ جاء المنتدى الذي أقامته مؤسسة عربية خاصة، هي " دار الفكر" السورية في جناحها، الذي فاق حضور دول عربية مجتمعة في فعاليته وحجم الإقبال عليه، والأهم؛ في درجة ملامسة ما أثاره من قضايا للتساؤلات المطروحة في أوروبة والعالم إذ لم تنقطع المحاضرات والندوات في هذا الجناح، الذي بدا استثنائياً في دقة توجهه نحو الزائر العالمي، وباللغات الحية ومنها الألمانية، في تظاهرة بدت أساساً موجهة لتقديم صورة أنقى للإسلام والثقافة الإسلامية، على أيدي رجال ونساء، ومنهم علماء ودعاة ومثقفون، معززةٍ بتوزيع آلاف المطبوعات بالإنجليزية والألمانية.

٢- في جريدة البعث العدد ١٢٤٥١ الثلاثاء ١٩/١٠/٢٠٠٤ تحت عنوان (معرض فرانكفورت ٥٦ للكتاب: العرب مروا من هنا) كتب جمال عبود، العائد من فرانكفورت:

لقد تكثف الحضور العربي في حضور أكاديمي عتيق كالدكتور عادل قره جولي أو الطيب التيزيني، وانجلى الكثير مما يشوب الصورة العربية بمشاركة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وغيره من العلماء المستنيرين..

وللحقيقة وجه ثالث في بعض الأحيان : إذا أردنا أن نتحدث في شيء من الخصوص والتخصيص، فإننا لن نكون منصفين إذا لم نشد بالجهد الطيب والمشكور الذي بذلته حقاً مؤسسات عامة وخاصة وحققت جدوى حقيقية من حضورها ومشاركتها، وسأبدأ بالإشادة بدار الفكر التي جعلت من جناحها منبراً إعلامياً وثقافياً ، كان محط اهتمام ومتابعة جمهور كبير من العرب وغير العرب، الذين تزاحموا في أكثر من يوم وأكثر من مناسبة، لمتابعة الفعاليات الثقافية والفكرية التي أشرف على إعدادها وتنفيذها صاحب هذه الدار وأمين سر اتحاد الناشرين العرب الأستاذ محمد عدنان سالم، الذي لمع اسمه في أكثر من مناسبة من مناسبات الإعداد والتحضير للمشاركة العربية في تظاهرة فرانكفورت الدولية للكتاب، بل إليه يعود الفضل في تذليل الكثير من عقبات الوصول العربي إلى فرانكفورت.

وطبيعي أن ما أنجزته دار الفكر تكامل وتجلى بمشاركة باحثين أجلاّء في إدارة وإجراء ندواتها الفكرية والثقافية. ولن تكتمل هذه الصورة المشرقة، صورة المشاركة غير المنضوية تحت المؤسسات الرسمية، دون الإشارة الواجبة إلى أن المشاركات الرسمية لم تكن أقل أهمية- أحياناً- من المشاركات غير الرسمية، وذلك على الرغم مما يعوق العمل المؤسساتي من قيود إدارية وضغوط مالية معروفة.

معرض فرانكفورت للكتاب

بداية لا نهاية

٢٠/١٠/٢٠٠٤

في العاشر من شهر تشرين الأول أكتوبر ٢٠٠٤، انتهى معرض فرانكفورت للكتاب، وعاد المشاركون العرب والمستضافون أدراجهم؛ يتنفسون الصعداء، ويستريحون في أجواء رمضان الحنون من عناء عام التحضير الشاق..

وعلى الرغم من كل الهنات والثغرات، ونفثات التشكيك، ورهانات الإخفاق، فقد كانت المشاركة العربية ناجحة بكل المعايير، وعلى كل المستويات؛ الرسمية منها والأهلية. تجلى نجاحها في كلمات الافتتاح، وما حظيت به الثقافة العربية من حفاوة وتقدير في كلمة المستشار الألماني شرودر، وفي عدد الزوار الأجانب المتدفق على الجناح العربي الذي سجل رقماً غير مسبوق، وفي حماس فولكر نويمان مدير المعرض الذي نصح الكوريين -الذين سيخلفون العرب في ضيافة الشرف العامَ القادم- بأن يسألوا العرب عما يجب على ضيف الشرف أن يفعله، وفي الحضور العربي الذي كان كثيفاً في فرانكفورت؛ في معرضها، وفي أسواقها، وفي صحافتها وإعلامها..

هل سيطول بالعرب أمد استراحتهم من عناء معرض فرانكفورت، كما فعلوا في استراحتهم الطويلة من أعباء حضارتهم التي شادوها في أقصر زمن تشاد به الحضارات كان قياسياً، ثم استكانوا، أو كما يفعلون إثر كل مؤتمر وندوة ينهمكون في التحضير لها، ثم ينتهي كل شيء بإصدار التوصيات والبيان الختامي؟!

لكن الأمر هنا مختلف تماماً..

فإذا كانت ظاهرة المؤتمرات والندوات لديهم كالحمى تنتابهم كل حين، ثم تنجلي عنهم دون أن تترك أثراً يذكر، فإن استضافتهم في أكبر سوق عالمي للثقافة قد لا تتكرر خلال قرن..

وإذا كان خطابهم في ندواتهم ومؤتمراتهم داخلياً تغيب أصداؤه وتختفي مفاعليه داخل قواقعهم، تمتصه حيطانها ويكتنفه النسيان في مجتمع منغلق يلفه السكون، فإن خطاب فرانكفورت خارجي تلقفه الآخر، في مجتمع منفتح متحرك لا يهدأ ولا ينسى ولا يحترم القوّالين بلا فعل.

وإذا كان معرض الكتاب في فرانكفورت ينعقد لخمسة أيام، يتلاقى الناشرون فيها من كل حدب وصوب، يبرمون العقود ويتبادلون الأفكار، ثم ينفض بعدها ليلتفت كل إلى تنفيذ ما تعاقد عليه، فإن استضافة العالم العربي ممتدة على مدار عام كامل يبدأ مع بداية معرض الكتاب، وعلى كامل التراب الألماني وفي كل مراكزه الثقافية.

فمن لشعلة الثقافة العربية التي توهجت في معرض فرانكفورت للكتاب، يمدها بالوقود لتستمر في توهجها عاماً، تتألق فيه ثم لا تنطفئ بعده؟!

حوار مع الأديب محمد عدنان سالم

لم نذهب إلى فرانكفورت للعودة بصك غفران

حوار: أنس الأموي

في هذا الحوار الخاص يفتح محمد عدنان سالم رئيس اتحاد الناشرين السوريين، ونائب رئيس الاتحاد العام للناشرين العرب، ورئيس اللجنة العربية لحماية الملكية الفكرية المنبثقة عنه باب الأسئلة والحوار بعد المشاركة العربية في معرض فرانكفورت للكتاب كضيف شرف.

فعلى الرغم من الأحاديث والدعايات المضادة التي رافقت هذه المشاركة العربية، إلا أن الجميع أكد أن هناك الكثير من النقاط التي حسبت لصالح الثقافة العربية المتهمة على الدوام باتهامات جاهزة لا مبرر لها. يصفها محمد عدنان سالم الذي أدار منتدى الفكر للحوار في هذا المعرض، بأنها عبارة عن (ردح فارغ) لا معنى له... تفاصيل للحوار مع مدير دار الفكر بدمشق.

قبل الحديث عن نتائج معرض فرانكفورت للكتاب، لنبدأ من التحضيرات العربية التي سبقت المشاركة في معرض فرانكفورت للكتاب؟

- يمكنني القول أن استضافة العالم العربي كضيف شرف في معرض فرانكفورت لهذا العام كانت ذات مجالين: رسمي ومهني، ففي المجال الرسمي توجهت إدارة المعرض إلى جامعة الدول العربية في البداية لتنظيم فعاليات هذه الاستضافة، أما الجانب المهني فقد مثله اتحاد الناشرين العرب، فبالإضافة إلى أن معرض فرانكفورت هو معرض كتاب فهو أيضاً معرض مهني في الأصل.

وقد كنا نطمح كناشرين عرب زيادة فعالية مشاركتنا في هذا المعرض، وذلك من خلال إدماج الناشر العربي بموضوع الناشر الدولي، لكن لم تتحقق أي خطوة صحيحة في هذا المجال لأسباب لا أريد أن أدخل في تفاصيلها الآن... فحتى الآن اتجاه المعرفة والترجمة يأتي من الغرب إلى الشرق وليس العكس، سوى لبعض المحظوظين الذين نالوا جوائز دولية كجائزة نوبل أو من الكتاب العرب الذين يكتبون بالفرنسية ممن يقيمون في فرنسا... هؤلاء فقط كانت تترجم أعمالهم إلى الألمانية من خلال اللغة الفرنسية حيث تكتب ضمن الأجواء الأوروبية المعروفة.

المهم أن هذا المعرض كان معرضاً مهنياً وقد تحول هذا العام إلى معرض ثقافي، لذلك يمكنني القول أن استضافة العالم العربي في معرض فرانكفورت للكتاب قد ارتقت بالمشاركة العربية من مجرد معرض كتاب يهم المعنيين في شؤون الكتاب من ناشرين ومؤلفين... إلى معرض ثقافي يهم كل إنسان عربي.

وهذا ما كان يؤرقني خلال فترة طويلة من إعلان استضافة العالم العربي.. لأننا أمام استضافة ثقافة متهمة توجه إليها السهام من كل مكان، ثقافة تجلد بسياط طلبات التغيير والتحديث والاندماج العالمي ضمن الحضارة العالمية بشروطها الخاصة ضمن مشروع العولمة ومشروع (الشرق الأوسط الكبير) الذي يريد منا أن نسلخ جلودنا لتستبدل بجلود جديدة لا تحمل هوية ولا ثقافة..

وهل كانت هناك خطوط واضحة للمشاركة العربية؟

– من البداية لم أضع هدفاً كبيراً لهذا الموضوع فقد كنت أقول لنخفف الأهداف حتى لا نصدم، فنحن لا نستطيع أن نعود ببراءة أو صك غفران بأننا لسنا إرهابيين ومتهمين، ولا نطمح إلى أن يكون المجتمع الغربي قد اقتنع بالثقافة العربية والإسلامية.

كل ما هنالك أنني وضعت هدفاً؛ هو أن نقتحم بثقافتنا كما هي– من دون أي إسقاطات؛ لا ماضوية ولا حاضرة– بكل تنوعها وأطيافها، والتأكيد أن هذه الثقافة ليست هي الثقافة الإرهابية التي يتحدثون عنها في كل مناسبة.. هذا الذي كنت أطمح أن نقدمه في معرض فرانكفورت وقد سعيت إلى هذا بكل معنى الكلمة.

وما هي أهم الأنشطة الثقافية التي قدمتها دار الفكر في أثناء المعرض؟

– بالإضافة إلى الندوات وحلقات النقاش والحوار والقراءات الأدبية والشعرية، كانت هناك برامج تلفزيونية ومحاضرات، كما أعددنا أفلاماً لهذا الغرض سجلنا فيها الموقف الثقافي الطبيعي، كما أقمنا حوارات مع الشباب العربي.. وذلك لنقل ثقافتنا الفعلية والتأكيد أننا هكذا نعيش في بلداننا في ظل ثقافتنا العربية.

كما حرصنا على مسألة التواصل الإنساني حيث كان هناك فتيات ألمانيات وعربيات من سورية يشرفن على جناح (دار الفكر) ويتولين الحديث والتواصل مع الزوار، يحاورنهم باللغات الإنكليزية والألمانية، ويقدمن الضيافات الدمشقية من الحلوى المشهورة وغيرها.. لأننا نعتقد أن التواصل الإنساني مهم جداً بغض النظر عن المحاضرات والندوات الثقافية المرافقة.

كما كان هناك شيء من الموسيقى والأفلام الوثائقية التي عرضت.

وماذا عن الكتب المجانية التي تم تقديمها للجمهور الغربي في هذا المعرض؟

– قدمنا العديد من الكتب المجانية والأبشورات باللغة الألمانية والإنكليزية، ككتابي د.محمد سعيد رمضان البوطي (مستقبل الإسلام) و(أوروبة من المادية إلى الروحانية) وكتاب (خطوة إلى الأمام) للسيدة سحر مهايني والتي تحدثت فيه عن المرأة العربية وحياتها وكيف يمكن أن تكون إيجابية وليست متقوقعة، كذلك كتاب مراد هوفمان (الإسلام والغرب)، وديوان للشاعرة السورية (رندة حموي) الذي كتبته خصيصاً لمعرض فرانكفورت تحت عنوان (قلبي يدق في ألمانية) وكتاب السيدة رنا قباني (رسالة إلى المسيحية)، وكتاب آخر ألفه د. إبراهيم الشهابي تحت عنوان (القرآن حرر الإنسان)، وكتاب للأستاذ جودت سعيد (نبذ العنف) وهو رجل اللاعنف في بلادنا.

وأبشورات حملت عناوين (لماذا نحن هنا؟) و(ماذا قالوا عنه؟)، وقرص CD بعنوان (رمضان في دمشق) للألمانية كريستين هيلبرغ، وغير ذلك كثير.

ألم تصادفكم بعض المشكلات وردود الأفعال من الجمهور الأوربي عامة والألماني بشكل خاص، في ظل الدعاية الصهيونية؟

– أود أن أشير أولاً إلى أن البرنامج الثقافي الذي أعددناه قد تم تنفيذه بشكل دقيق، حيث كان في كل يوم برنامج مكثف.. فلا تكاد تنتهي محاضرة حتى تبدأ ندوة وبعدها حلقة نقاش، لأننا كنا نريد أن نسمع من الجمهور ما يجول في خاطره، ونتواصل معه بلغته..

وعليه لم تصادفنا أية مشكلات سوى في ندوة واحدة فقط أقمناها ضمن جناح اتحاد الناشرين العرب في القسم الرسمي، وقد تبين لنا أن هناك أناساً يعملون في الخفاء على إجهاض أي عمل أو نجاح نريد أن نحققه.

وقد كان يدير الندوة كل من د. محمد سعيد رمضان البوطي ود. سليم العوا وقد تمحورت هذه الندوة حول أفكار في غاية الأهمية حيث كان عنوانها (مستقبل الإسلام في عالم متغير)، حيث طرح د. البوطي فكرة رائعة وهامة، وهي أن هذا الإسلام ليس للعرب فقط وأنهم لم يصنعوا الإسلام وإنما الإسلام هو الذي صنعهم وقدمهم للعالم.. وبالتالي فإن الإسلام ملك للإنسانية وللثقافة الإنسانية جمعاء، وأي إنسان يستقبله ويتقبله هو أحق به من الغير، وإذا عجز العرب على أن يقدموا له شيئاً فهو ملك للجميع، فإذا كان المجتمع الغربي يرى في الإسلام بعض الحلول لمشاكله التي يعاني منها فهو ميسر للجميع دون تفرقة.

بعد هذه الندوة الحوارية توزع بعض الأشخاص لطرح أسئلة جانبية ليست في موضوع المحاضرة مطلقاً.. من قبيل أن القرآن استخدم بعض التعابير الآرامية والسريانية في غير معناها الأصلي، وهل أستطيع أن أبني كنيسة في السعودية أو أن اذهب إلى مكة، وكيف لغير المسلم الذي يعمل طول حياته في الخير ومع ذلك سيدخل النار..؟! أي أن مثل هذه الأسئلة والأمور واضح فيها قلب لموضوع المحاضرة كلها.

كلمة المستشار الألماني غرهارد شرودر

.بمناسبة افتتاح معرض الكتاب في فرانكفورت الثلاثاء ٥ أكتوبر٢٠٠٤

سيادة الأمين العام المحترم

السيد رئيس الوزراء

السيدة عمدة فرانكفورت الأولى

السيد شورمان المحترم

السيدة العزيزة سوزان مبارك المحترمة

حضرات السيدات والسادة

إنني لأعتبره نجاحاً عظيماً بالفعل أن نكسب العالم العربي بأجمعه ضيف شرف لهذا العام، ليس فقط لأنه سوف يُعرض علينا في الأيام القادمة مشهد ثقافي ثري، ومثير للإعجاب عن حق، وإنما أيضاً لأننا جميعاً ستسنح لنا فرصة هامة لنرى العالم العربي في صورة متجددة واسعة كثيرة التنوع.

أعتقد حقاً أن هذا شيء ضروري جداً، فلقد أصبحت التصورات عن المجتمعات الشرقية في السنوات الأخيرة يصبغها التشويه والآراء المسبقة والعموميات الهوجاء، وكثيراً ما تطلق أحكام عامة جداً عن الإسلام، أو المسلمين، بعجالة وبلا تفكير، وكذلك عن جهل في بعض الأحيان، هذا بدلاً من إدراك التنوع الذي يتيحه الإسلام وتعدد الثقافة والمجتمعات الشرقية.

لكن من يود الحذر من الآراء المسبقة الخاطئة، فعليه أن يكون مستعداً لرؤية التنوع، ففيه فقط يمكن أن نطور فهماً أوسع للثقافات المختلفة، ولاختلاف الثقافات. وأي مكان أفضل لمثل هذا التنوع والتأمل من معرض الكتاب إذن؟

سيداتي وسادتي

إن العالمين الغربي والعربي يربطهما تاريخ طويل وهو في مجمله تاريخ مشترك أيضاً فالإسهامات الحضارية الهائلة للثقافة الإسلامية لا تنكر، وتظهر واضحة حتى اليوم في العديد والعديد من المدن الأوروبية الهامة.

فالعلماء العرب، المسلمون منهم وغير المسلمين، هم الذين منحوا العالم المفتاح إلى أكثر العلوم تقدما في القرون الوسطى، يسري هذا على علوم الطب والكيمياء والفلك، بل وأيضاً على إعادة اكتشاف الفلسفة الإغريقية، وفيما بعد عرَّف الباحثون والعلماء من الغرب العالم العربي بتطور إنجازات الصناعة والتقنية الحديثة، وقدموا مساهمات ثمينة للحفاظ على التراث العربي العظيم واكتشافه.

يوضح هذا، أيها السيدات والسادة، أن التبادل الثقافي إذن ليس علاقة أحادية الجانب، ولا يجب أن يكون كذلك إطلاقاً، فعلينا لهذا السبب أن نواصل دعم الحوار بين مجتمعاتنا. وتقديمُ الأدب العربي في معرض الكتاب في فرانكفورت يعد إسهاماً مهما جداً في هذا الصدد .

وأخيراً وليس آخراً فإنه مساهمة هامة جداً، حيث إن التثقف والمعرفة المكتسبين بواسطة القراءة، شرط مبدئي لكي يفهم بعضنا البعض فهماً أفضل، وأيضاً كي نتعلم من بعضنا البعض في عالم يتقارب أكثر فأكثر من يوم إلى آخر .

وأعتقد أنه لن يكون سهلاً توسيع الهوة بين العالمين العربي والغربي، حين يسود الفهم والانفتاح والتسامح و الفضول. وكل من يريد أن يستمر رغما عن ذلك في مثل هذه المحاولات، فإن علينا أن نواجهه بكل حزم لأننا تعلمنا رؤية التنوع ونرغب في التمسك به.

سيداتي وسادتي

إن ضربات نيويورك وجربة وبالي ومدريد،و بسلان مؤخراً قد أيقظت فينا الوعي المفجع بأن الإرهاب أحد أكبر التهديدات الموجهة إلى المجتمع الدولي.

إن الإرهاب هو إعلان حرب ضد مجمل الحضارات في عالمنا، ولذلك فعلينا أن نقاومه أيضاً معاً، فالقضية هنا إذن ليست صراع الحضارات وإنما هي مكافحة الإرهاب.

وإجمالاً فإن علينا أن نكون أكثر حيطة، قبل أن نفسر صراعات ما بأن مكونها الأساسي ثقافي، إذ إن العالم لا يتكون فقط من ثقافات بمعنى وحدات قائمة بذاتها، وإنما يتكون من مجتمعات ودول وتحالفات دول وما فتئ البشر هم المسؤولون عما يفعلون –سواء فعلوا خيراً أم شراً.

القضية في جوهرها نضال حول الثقافة في عالمنا الواحد –حول التسامح وكونية تطبيق حقوق الإنسان. فعلينا أن نخوض هذا النضال بكل ما في متناول يدنا من تصميم، وذلك من أجل ثقافاتنا المختلفة. وهذا يعني جميع الدول، ومنها الدول العربية، الالتزام بنبذ الإرهابيين وآخذي الرهائن المتعصبين ومحاربتهم.

سيداتي وسادتي

إن السلام والتنمية يتعلق كل منهما بالآخر،لا يسري هذا فقط على منطقة الشرقين الأوسط والأدنى، فلا تنمية بلا سلام، لكن بلا تنمية، أي دون رفع مستوى الرخاء وتحسين فرص الحياة للناس جميعاً يستحيل أن يدوم السلام.

إن النزاع الذي لم يحل في الشرق الأوسط بعد يتهدد الأمن والاستقرار، ليس فقط في المنطقة وإنما في العالم كله وعلى الإسرائيليين والفلسطينيين أن يخرجوا من حلقة العنف المفرغة هذه، وما ندركه هو أن النزاع لا يمكن أن يُحل عسكرياً وإنما حله سياسي فقط.

إن الهدف المحدد في خريطة الطريق ما زال سارياً؛ يجب أن توجد دولتان، إسرائيل وفلسطين، تستطيعان العيش في حدود آمنة ومعترف بها، وفي علاقات جوار سلمية.

إن إعلان إسرائيل انسحابها من قطاع غزة كان خطوة أولى وبالتأكيد خطوة هامة، لكن يجب أن تتبعها خطوات أخرى، وذاك من الجانبين.

سيداتي سادتي

المسألة في العراق أيضاً مسألة الاستقرار والأمن في المنطقة بأكملها، ولهذا السبب فسوف تستمر ألمانية في المساهمة باستقرار العراق وإعادة تعميره. فالموضوع ليس هو من كان على حق في تقييمه للنزاع.. هذا قد أصبح جزءاً يسيراً وإن كان بالتأكيد هاماً من التاريخ المعاصر. المسألة حالياً هي أننا نتحمل جميعاً مسؤولية زيادة حضور الاستقرار والديمقراطية إلى المنطقة، ولن يتم ذلك إلا لو تمكنا من خلق معطيات سلمية في العراق.

في مشروع مشترك مع دولة الإمارات العربية المتحدة نقوم بتدريب عناصر من الشرطة والعسكر العراقيين. إننا نفعل ذلك كي يستطيع الناس في هذا البلد أن يدافعوا عن أمنهم بأنفسهم، فإنني أعتقد أن تلك هي الطريقة الوحيدة لحل هذا النزاع.

لكن على الدول العربية أيضاً أن توظف علاقاتها الجيدة تقليدياً مع شعب الجوار في العراق لكي يفوز بالسلام وتصبح التنمية ممكنة في العراق.

سيداتي وسادتي

يقول البعض بأن العالم العربي الموحد يعد يوتوبيا، من أجل تنوعه وأيضاً بسبب المصالح المختلفة، لكننا نلمح مؤشرات تبعث على الأمل لعمل مشترك أكثر فعالية في الفضاء العربي وإنني أعتقد أن لجامعة الدول العربية دوراً فائق الأهمية ووظيفة حاسمة في هذا الصدد. خلافاً لذلك فإن علينا أن نوضح لأنفسنا مرة أخرى وبهذه المناسبة أن أوروبة الموحدة كانت منذ ما لا يتعدى ٦٠ عاماً تكاد تكون يوتوبيا.

اليوم، وبعد الحروب المروعة في القرن الماضي، نعيش في أوروبة موحدة يسودها السلام والأمن. هنا يكمن السبب في أننا نحن الأوربيين نأمل وننشد أن نساعد في المجهود الذي يرمي إلى أن تحقق الشعوب في العالم العربي أيضـــاً وفي مستقبل جد قريب، المصالحة بين دول كانت في السابق عدوة.

سيداتي وسادتي

إنني أتمنى لكم، للعارضين والزوار، للكتاب وأصحاب المكتبات والناشرين تبادلاً شـــيقاً ولمعـــرض الكتـــاب في فرانكفورت مسيرة ناجحة.

وعلينا أن نشكر معرض الكتاب وجامعة الدول العربية، ونخصكم يا سيادة الأمين العام بالشكر، لأنكم قد أعطيتم بذلك دفعة هامة للحوار الثقافي الضروري، وأولاً وقبل كل شيء لأنكم قد منحتمونا الفرصة هنا في فرانكفـــورت، كي نتعرف بشكل أفضل على العالم العربي الرائع والتنوع المثير للإعجاب الذي يتسم به الأدب العربي.

فماذا يقول المثل العربي عن حق" إن الكتاب مثله مثل حديقة تحملها في جيبك"

وأشكركم على حسن الانتباه

عائد من فرانكفورت

٢٠٠٥/٣/١٩

قال محدثي- وكنا في مجلس نتطارح فيه هموم الكتاب، وقد رآني أستفيض بانشراح في الحـــديث عـــن معـــرض فرانكفورت للكتاب-: ألم تقرأ ما كتبه النقاد عن المشاركة العربية في معرض فرانكفورت، كم كانت هزيلة باهتـــة تكسوها كل سوءات البيروقراطية والتخلف والعري الثقافي؟! وأي كتاب عربي هذا الذي عرض في فرانكفـــورت؟! أهو ذلك الكتاب الذي أدركته الشيخوخة في ديارنا فراح ينضو عنه أسماله ويجدد شبابه في فرانكفورت؟! وماذا بقي للكتاب في عصر المعلومات وثورة الاتصالات والفضائيات والوسائط المتعددة؟! هل بقي له إلا أن يتوارى مفســـحاً المجال لتقنيات العصر الجديد؛ عصر الانفجار المعرفي وطوفان المعلومات؟!

قلت لمحدثي: لقد قرأت مقالات النقاد، فوجدتها متفاوتة الرؤى، مثل مرايا مختلفة الألوان ودرجات النقاء، كـــل منها يعكس من الصورة حسب طاقته ولونه ونقاوته وزاويته، وبعضها يضفي على الصورة من ذات نفسه وبعض ما فيه من غبش أو انكسار. ولا بد لتشكيل الصورة الشاملة الأقرب للحقيقة من إخضاعها جميعـــاً لعمليـــات تنقيـــة وتصفية، تنحي عنها الشوائب، وتفرز المزايا والعيوب، وتبرز السلبيات والإيجابيات لتستخلص منها العبر والدروس.

لقد تعلمت في وقت مبكر من حياتي، كيف أنأى بأذني عن نعيق الغربان، في جوقة الصباح التي تقيمها العصـــافير إيذاناً بميلاد فجر جديد، لأصرفها إلى تغريد البلابل وأناشيدها الودودة، مما أعانني على استقبال عملي دائمـــاً بأمـــل وتفاؤل، مهما اكتنفه من صعوبات، بل إني أصبحت أعتبر الصعوبات علامة الحياة والنمو، ومن خلال هـــذه المـــرآة العدسة، تكونت لديَّ الصورة الناصعة عن الكتاب وعن معرض فرانكفورت.

لقد رأيت في معرض فرانكفورت ٢٠٠٤ فرصة استثنائية للثقافة العربية الإسلامية، كي تعرض نفسها، بوصـــفها ضيف شرف عليه، بواقعية تبرز ما تحفل به من تنوع وعراقة، وما تملكه من مخزون فكري وقيمي عظيم مكتنَـــــز في

أعماقها ينتظر التنقيب والبحث فيه، و لم تتمكن المساحيق وعمليات التزيين التي قامت بها الجهات الرسمية الموكلة بالتنظيم أن تخفي العجز الإبداعي والوهن الحضاري الذي تعانيه ثقافتنا في مرحلتها الراهنة.

إننا لم نذهب إلى فرانكفورت لنعود منها بصك غفران يبرئ ذمتنا مما يوجه إلينا من اتهامات، ولا ببراءات اختراع تدغدغ مشاعرنا وتوهمنا في حلبة السابق العالمي أننا أصبحنا مبدعين فيما نقلد به الغرب.. إنما ذهبنا بوصفنا نمطاً آخر، ثقافة مختلفة، تنطوي على قيم إنسانية عليا، ولديها ما تقدمه للغرب مما يمكن أن يكون بحاجة إليه، وترغب في أن تأخذ من الغرب ما يغني ثقافتها ويعينها على استئناف مسيرتها الحضارية.. وأرى أننا نجحنا في تحقيق هذا الهدف إلى حد كبير، ورسخنا موطئ قدم لنا على أرضية الحوار، وحجزنا مقعداً لنا في المنتدى الثقافي الدولي، أكدنا به دوراً للناشر العربي عبر اتحاده موازياً للدور الرسمي جنباً إلى جنب، وقام الاتحاد باستلام الكتب المقدمة للعرض وتصنيفها وفهرستها وتنظيم عرضها، كما قام بتنظيم الجناح المهني في المعرض، وتقديم المعلومات والخدمات للزوار من خلال الجناح المخصص له، وتنظيم ندوات مهنية وأخرى ثقافية في القاعة التي وضعتها إدارة المعرض بتصرفه، وأسهم الناشر للمرة الأولى في تاريخ مشاركته بالمعارض بالنشاط الثقافي الذي كان حكراً على الجهات الرسمية فيما مضى.

ولئن أظهرت مشاركتنا في معرض فرانكفورت لنا ضعفنا في ميدان حوار الثقافات على الصعيد الرسمي، وغربة الناشر العربي في إطار النشر الدولي، فذلك في نظري نقطة إيجابية تحسب للمشاركة، وتشكل حافزاً لنا على استكمال نواقصنا في المجالين.

ثم تابعت أقول لمحدثي:

هذا ما رأيته في معرض فرانكفورت، بعيداً عن رؤى النقاد، أما عن الكتاب الذي تصورتَه عجوزاً ترتجف أطرافه، ويتأهب لملاقاة مصيره المحتوم، فإني أؤكد لك أن الكتاب خالد لا يشيخ، وحده الإنسان الذي يشيخ، فإذا ما تراخت يد الإنسان عن الكتاب في أمة بسبب شيخوختها، غادرها إلى أمة تمسك به بقوة، تنمو به وينمو بها، لينعما معاً في ظلال الحضارة الورافة، أليس تاريخنا شاهداً على ذلك؟ أليست حضارتنا وليدة لحظة (اقرأ(الكلمة الأولى التي دوَّت بها جنبات غار حراء، فاخترقت أسماعنا وانطلقنا على هديها نجوب الآفاق، نجمع كل ما تصل إليه أيدينا مما اختزنه الكتاب من معارف الإنسان وحكمته وخبراته، لنصهره في بوتقة ثقافتنا ونعالجه ونضيف إليه ونعيد إنتاجه خلقاً جديداً؟! وهل تخلفُنا الراهن إلا وليد هجرنا للكتاب الذي ارتحل عنا إلى الغرب، فتلقفه وأكرمه، فأقام عنده يتمتع بكامل حريته وحيويته ونضارته، وأفاض عليه من خيراته؟! ولسوف يدرك الغربَ ما أدركنا إن هو قصر بحق الكتاب، {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: ٣/١٤٠] .

الكتاب لا يشيخ، لقد رأيته مثل عروس ليلة زفافه مرتين رأي العين هذا العام

(فقد حضرت عرسه في فرانكفورت، وكان المعرض الذي أقيم فيه العرس مثل خلية نحل يغص بالزوار، كلٌّ يمضي لهدفه، لا وقت لدى أحدهم يضيعه، ورأيت العارضين منشغلين بمواعيدهم وبرامجهم المرتبة مسبقاً، لا تستطيع أن تخترقها إلا لماماً، ورأيت المدينة التي أقيم فيها المعرض تعيش أيامه كموسم سياحي، لن تجد فيها مُقاماً إلا على أطرافها، إن لم تكن قد حجزت إقامتك فيها قبل بضعة أشهر، ورأيت وسائل الإعلام وأضواءها حفية بتغطيته

كحدث عظيم، ورأيت رئيس الدولة يفتتحه ويشيد به وبجمهوره، ورأيت العروس ذاته (الكتاب)يتألق ويزهو كما لم أره في أي مناسبة أخرى.

إنه معرض مختلف؛ عارضوه، جمهوره، زواره، اهتماماته،تنظيمه، معروضاته، وسائله، ندواته، مناخه، أجـــواؤه.. كل ذلك مختلف عما ألفناه في معارض الكتاب في بلادنا، ومبيعات الكتاب فيه لا تشكل أرقاماً تذكر، ونجاحـــه لا يقاس بها، إنما يقاس بمقدار ما يتبادل فيه من حقوق للترجمة والطبع والنشر، وما ينعقد فيه من اتفاقات وعلاقات.

إنه بحق عكاظ عالم اليوم.

(كما شهدت عرساً آخر له على شاشة التلفاز، كان العرس في معرض الشارقة للكتاب في حيزه المحدود مكانـــاً، لكن فضائية الشارقة بتغطيتها الواسعة غير المحدودة له، حوَّلته إلى مهرجان عالمي للكتاب بلا حدود.

رأيت أمير الشارقة لا يكتفي بقص الشريط إيذاناً بافتتاحه وإعلان انطلاق فعالياته، بل هو يرافقه ويهـــتم بكـــل صغيرة وكبيرة فيه. يعرف كل تفاصيله، يزور كل أجنحته لا يقصر زيارته على المحظيين، يقضي في كل جناح وقتـــاً يشعر العارض بأهميته كصانع للثقافة، يقوِّم إنتاجه، يشيد بجديده، يحدثه عن قديمه، حتى لكأنه يعرف عنه أكثـــر ممـــا يعرف عن نفسه.. ورأيت فضائية الشارقة تغطي معرض الكتاب بشكل مختلف؛ فلا قيود ولا حدود أمـــام الكتـــاب والعارض؛ لكلٍّ فرصته ونصيبه من دون تعقيدات ولا عقد، حتى الأسئلة المطروحة في المقابلات مع العارضين والزوار تجدها قد تجاوزت المألوف والمعهود من أسئلة القوالب الجاهزة المملة.. والوقت كله مخصص للكتاب، حـــتى نشـــرة الأخبار يدور جزء منها حول الكتاب ويطوف به.. لقد كنت أشم عبق الثقافة عبر قناة الشارقة، حـــتى لكأنهـــا لم تكتف في تغطيتها لمهرجان الكتاب العروس في معرض الشارقة ببث الصوت والصورة بل بثت معهما العطور الـــتي كانت تفوح فيه، فتغريك بعشق الكتاب..

برنامج منتدى الفكر للحوار

يومياً

٨.٣٠-٩.٣٠ موسيقى شرقية

فعاليات يوم الأربعاء ٢٠٠٤/١٠/٦

٩.٣٠-١٠.٣٠ جودت سعيد

محاضرة بعنوان "مستقبل الإسلام"

١٠.٣٠-١١.٣٠ فيلم وثائقي بعنوان:

(الإسلام امبراطورية الإيمان)

١١.٣٠-١٢.٣٠ رندة الحموي- سحر مهايني

ندوة بعنوان "عمل المرأة المسلمة"

١٣.٠٠-١٤.٠٠ عبد التواب يوسف

محاضرة بعنوان "ثقافة الطفل العربي"

١٤.٠٠-١٥.٠٠ د.م سعيد البوطي - د.برهان غليون

ندوة بعنوان "الإسلام والتحديات المعاصرة"

١٥.٠٠-١٧.٠٠ فاضل سليمان

محاضرة بعنوان "الإسلام باختصار"

****

فعاليات يوم الخميس ٢٠٠٤/١٠/٧

٩.٣٠-١٠.٣٠ هبة رؤوف عزت -د. برهان غليون

ندوة بعنوان "الديمقراطية في العالم العربي"

١٠.٣٠-١١.٣٠ فيلم وثائقي بعنوان:

"الشباب والعمل الطوعي"

١١.٣٠-١٢.٣٠ د. أحمد عبد الله

محاضرة بعنوان "الإسلام على الإنترنت"

١٢.٣٠-١٤.٠٠ د. مراد هوفمان

محاضرة بعنوان "الإسلام في ألمانية اندماج نعم، وانصهار لا"

١٤.٠٠-١٥.٠٠ د. محمد سليم العوا – د. برهان غليون

ندوة بعنوان "العرب والآخر"

١٥.٣٠-١٦.٤٥ د. عبد الوهاب المسيري- هبة رؤوف عزت – د. أحمد عبد الله

ندوة بعنوان "الخطاب الإسلامي الجديد"

١٧.٠٠-١٨.٣٠ فاضل سليمان

محاضرة بعنوان "القرآن مكتشف الحرية"

****

فعاليات يوم الجمعة ٢٠٠٤/١٠/٨

٩.٣٠-١٠.٣٠ فيلم وثائقي بعنوان:

"لقاءات مع مثقفين وعلماء عرب"

د. محمد سعيد رمضان البوطي -جودت سعيد

الترجمة للألمانية د. نبيل مهايني

ندوة بعنوان "الأقليات بين الحكم الإسلامي والحكم الغربي"

١٢.٣٠-١٤.٠٠ فيلم وثائقي

د. فريال مهنا – د.محمد سليم العوا

ندوة بعنوان "المرأة في العالم العربي"

١٥.٣٠-١٦.٤٥ د. كلاوس بيتسولد

محاضرة بعنوان "الفكر الغربي والفكر الشرقي"

١٧.٠٠-١٨.٣٠ فاضل سليمان

محاضرة بعنوان "هل الإسلام دين سلام أم دين حرب"

****

فعاليات يوم السبت ٢٠٠٤/١٠/٩

٩.٣٠-١٠.٣٠ د. الطيب التيزيني

محاضرة بعنوان "دور الفكر العربي في الحضارة الإنسانية"

١٠.٣٠-١١.٣٠ فيلم وثائقي

١١.٣٠-١٢.٣٠ د. محمد سليم العوا -د. كلاوس بيتسولد - د. عبد الوهاب المسيري

الترجمة للألمانية : د. نبيل مهايني

ندوة بعنوان "تصحيح صورة الإسلام في الغرب"

١٤.٠٠-١٥.٠٠ فيلم وثائقي

١٥.٣٠-١٦.٣٠ رندة حموي -قراءة شعرية

١٦.٣٠-١٨.٣٠ د. فريال مهنا

محاضرة بعنوان "الجهاد في الإسلام"

****

فعاليات يوم الأحد ٢٠٠٤/١٠/١٠

٩.٣٠-١٠.٣٠ محمد عدنان سالم

محاضرة بعنوان "العرب والإرهاب"

١٠.٣٠-١١.٣٠ فيلم وثائقي

١٢.٠٠-١٥.٠٠ د.نبيل مهايني

محاضرة بعنوان "الإسلام والعولمة"

١٥.٠٠-١٦.٠٠ أشجان هندي -قراءة شعرية

تقويم المشاركة العربية في معرض فرانكفورت للكتاب

في عام استضافة الثقافة العربية ٢٠٠٤

٢٠٠٤/١١/١٧

* ما كتب أو أذيع أو بث عن هذه المشاركة كان كثيراً جداً؛ ينم عن أهمية الحدث، وعن احتلاله حيزاً مقبولاً في الوجدان العربي.

وقد انقسم المحللون للحدث، منذ بدايات التحضير له، بين متشائم مشكك ساخط، ومتفائل مشجع راضٍ..

وقد وزع المحللون الأدوار في المشاركة بين المنظمين والمنفذين، فأسندوا التنظيم الرسمي إلى الجامعة العربية، وألحقوا بها اتحاد الناشرين العرب عنوة لإشراكه في المسؤولية، وجعلوا الكتّاب والمفكرين في زمرة المنفذين، ثم ميـــزوا بـــين كاتب بالعربية مقيم، وكاتب باللغات الأجنبية مهاجر، وألحقوا الناشرين العرب ثانية بهذه الزمـــرة التنفيذيـــة مجـــرد عارضين.

****

* في غياب مؤسسات الرصد الإعلامي الشامل الذي يمكن أن يزودنا بكل ما نشر من تحليلات عـــن المشـــاركة، استطعت جمع ملف إعلامي يصلح أن يكون عينة ترتكز إليها دراستي هذه، وتضم أعداداً من صحف: الحياة والسفير والشرق الأوسط وأخبار الأدب والمستقبل وتشرين وفضائية العربية، وموقع كلنا شركاء.

وقبل الخوض في تفاصيل السلبيات والإيجابيات والدروس المستقاة، أود الإشارة إلى ملامح عامة، لا يحتاج المرء إلى كبير عناء لملاحظتها:

- معظم المقالات والمقابلات كانت لكتّاب ينتمون إلى زمرة المثقفين من محتكري ألقاب (الثقافة والإبداع).

- معظم الكتابات والتحليلات كانت سالبة تندرج في خانة الفشل والتشاؤم والسخط، تنحـــو باللائمـــة علـــى المنظمين، وتصور أصحابها بوصفهم (المعارضة /الضحية).

- معظم الصحف ووسائل الإعلام؛ تولت كبر نشر هذه التحليلات المتشائمة لمن تحتضنه من محتكـــري الثقافـــة، وغضت طرفها عن كل تحليل إيجابي لمن ترفضه وتقصيه من المفكرين.

- إصرار معظم المتشائمين على مواقفهم الساخطة قبل المعرض وأثناءه وبعده- على الرغم من تغيير بعضهم موقفه إيثاراً للموضوعية - ينم عن إتقانهم فن (الردح) كنوع من الضغط الذي لا يزالون يمارسونه لتحقيق مكاسب لـــدى المنظمين الرسميين.

- معظم المحللين، ركزوا على الناشر كمحور لمعرض الكتاب، - على الرغم من تهميشهم لدوره الثقافي الفاعل - لينسبوا إليه العجز ويحملوه مسؤولية فشل المشاركة- بزعمهم - إلى جانب الجهة الرسمية المنظمة.

- معظم الناشرين الذين أجريت معهم مقابلات إعلامية عبروا عن ارتياحهم لنتائج المعرض ، لكـــن شـــهاداتهم كانت مجروحة لدى فريق (الرداحين) - على الرغم من الانتقائية الواضحة لهم - لكونهم قد ألحقوهم بالمنظمين.

- ونقرأ في قائمة المتشائمين أسماء الكتّاب الفرانكوفونيين أمثال: الطاهر بن جلون، وصلاح ستيتية، وعبد القـــادر الجنابي، وآسيا جبار،وبعض الكتاب والصحفيين العرب أمثال رفيق شامي وجابر عصفور وعبـــده وازن، وسوســـن الأبطح، والكتاب الناشرين أمثال رياض الريس وسماح إدريس. كما نقرأ في قائمة الموضوعيين أسماء رضوان الســـيد وجمال غيطاني وعبده عبود وخلف الجراد بالإضافة إلى إبراهيم المعلم وزملائه من الناشـــرين، ونقـــدر لهـــم جميعـــاً الموضوعية والنظرة الشاملة المتوازنة.

****

ولنا أن نصنف السلبيات كما رآها المتشائمون، و لم يغفل عن الجدير بالملاحظة منها المتفائلون الموضوعيون فيمـــا يلي:

١- الطابع الرسمي وشبه الرسمي الذي اتسمت به المشاركة العربية ومثلها المسؤولون العرب الذين راحوا يتبخترون في المعرض كما لو كانوا في عرض سينمائي، يلهث وراءهم موظفوهم مما أضفى عليها كل مثالب البيروقراطية من الاستئثار والتسلط والمحاباة والسلبية.

٢- غياب التعددية، في مونولوج باتجاه واحد، ولون واحد، ينفي الأطياف الأخرى، والاتجاهات المعارضة والمخالفة والبديلة.

٣- سوء التنظيم الذي بدا واضحاً في الارتجال والعشوائية والارتباك والفوضى، والعجز عن احتواء المشكلات الطارئة، والتخبط والتغيير المستمر في البرامج حتى إن كثيراً من المحاضرين لم يكونوا يعرفون مواعيد ندواتهم، وفرار المشرفين على القاعات هرولة وراء كبار المسؤولين.

٤- كثافة المحاضرين على حساب الوقت المخصص لكل منهم، والجمهور المستمع إليهم، والزج بهم في محاضرات خارج اختصاصاتهم، وانعدام التوليف والتناغم بينهم الذي أدى في بعض الأحيان إلى التشاجر والتلاسن، مما عكس اعتماد سياسة الإبهار بالكم دون الكيف، وجعل المشاركة فضفاضة لا تساوي نتائجها ما أنفق عليها.

٥- تواضع المحاضرات التي اختلط فيها الغث بالسمين، ولم تراعَ في بعضها اهتمامات المخاطب الألماني، وتجنبت عموماً الحديث عن القضايا العربية المتفجرة، تاركة ذلك للألمان.

٦- الجمهور الذي كان جله من العرب؛ حضوراً ومحاضرين، خلافاً لمقتضيات الحوار المستهدف بين عرب وألمان، فلكأن العرب راحوا يحاورون أنفسهم في فرانكفورت. لم يدعَ للمحاضرة غير القليل من الألمان، ولم يجر حوار جاد بين المثقفين من عرب وألمان، ولم يتم تعارف بينهم، ولم يتبادل الشعراء من الجانبين قراءة أشعارهم إلا خارج البرنامج الرسمي بتنظيم من مؤسسة (ديوان الشرق والغرب) التي تديرها أمل الجبوري، وفي منتدى الفكر للحوار الذي نظمته دار الفكر.

٧- اللغة الغالبة كانت العربية، ولم تستطع الترجمة المرتجلة والبائسة أحياناً اختراق الحاجز اللغوي، مما أدى إلى انصراف الجمهور الألماني المستهدف.

٨- الكتاب العربي المعروض: مكرر لا إبداع فيه، يجتر ذكريات الماضي الزاهر، بديلاً عن رؤى المستقبل.

٩- التزيين والديكور البائس في غياب الأرابيسك، فضلاً عن الصور (المحرمة إسلامياً)، مما جعل الجناح العربي الأقل جذباً فكان (عربياً بامتياز).

١٠- الناشر العربي: براعة الألمان في ترتيب أجنحتهم،وفي عرض كتبهم والتعريف بكتّابهم، والطريقة التي يقدمونهم بها، ووسائل الإقناع بشراء حقوق ترجمتها، والمواعيد المسبقة المكثفة التي يرتبونها، حتى غدت أجنحتهم خلايا نحل نشطة، كل ذلك كشف عجز الناشر العربي، القابع مع زملائه في أجنحتهم الخاوية،يندبون حظهم المتعثر بسبب تقصيرهم في فهم هدف المعرض والإعداد له وجهلهم بلغته وأساليبه، مما فوت على المشاركة العربية تحقيق أكبر أهدافها، وهو تسويق حقوق الترجمة لآدابها، حتى الحاذقون منهم اشتروا من حقوق الترجمة ولم يبيعوا إلا النزر اليسير، ولكأن الناشر العربي ذهب إلى فرانكفورت للتفاخر بمجرد شد رحاله إليها، واكتفائه من الغنيمة بالإياب.

١١- طغيان الطابع المصري على المشاركة العربية، فإدارة المشاركة مصرية والمتكلمون في حفل الافتتاح: عمرو موسى، ومحمد سلماوي نيابة عن نجيب محفوظ، وكانت السيدة سوزان مبارك نجمة ليلة الافتتاح، وقد توجه المستشار الألماني شرويدر إليها كأنها راعية المهرجان، وعرض الافتتاح شهرزاد في صالة الأوبرا كان في الطليعة، واحتلت الدور المصرية واجهة الجناح العربي، تتصدره نسخ من كتيب السيدة سوزان مبارك (الحق في القراءة) وملصق للكتاب عليه صورتها، حتى إن سلوى بكر تساءلت: هل نحن في فرانكفورت أم في معرض القاهرة للكتاب (والكلام كله لعبده وازن في الحياة ١٤/١٠/٢٠٠٤).

١٢- اتحاد الناشرين العرب؛ كان له النصيب الأوفى من نقد المتشائمين (الرداحين):

- فالشك يساور السيد عبده وازن في الأرقام التي أوردها تقرير الاتحاد عن عدد الدور المشاركة وهو ٩٨٧ ناشراً، إلا إذا اعتبر التقرير عرض كتاب أو كتابين لناشر مشاركة له.

- والطامة الكبرى - عنده - تمثلت في طبع الاتحاد دليلاً ضخماً بالعربية بعناوين الكتب المعروضة، وهو لا يعني إلا القلة القليلة من العرب الزائرين والمهاجرين، وكان الأجدى أن يوضع بالألمانية، فقد تراكمت النسخ وكانت كلفتها عالية يمكن تفاديها.

- وتكفي - برأيه - الفوضى التي شهدتها الصالة العربية الرئيسية التي اختلطت فيها العناوين عشوائياً حتى بات من المستحيل البحث عن كتاب، و لم ينج من هذه الفوضى إلا نجيب محفوظ الذي عرضت كتبه على حدة.

- والمضحك حقاً - عند جابر عصفور (الحياة ٢٧/١٠/٢٠٠٤) -أن اتحاد الناشرين العرب مع مسؤولي الجامعة العربية نسوا وعودهم بترجمة ٥٠٠ كتاب من العربية إلى الألمانية، وتمخض اتحاد الناشرين العرب فولد وعوداً عجز عن أدائها. وإلا فمن المسؤول عن الاختيار العشوائي للعشرة آلاف كتاب التي عرضت لتمثيل الكتاب العربي؟! لقد وقفت طويلاً أتأمل العناوين وأقرأ المجلد الضخم الذي حواها ، وأعجب من سوء الاختيار، وارتباك المنظور، وتعمد إبراز ما لا ينبغي إبرازه، وحجب ما لا ينبغي حجبه.

- ومن المضحكات الدالة أن اتحاد الناشرين العرب وحتى الأليكسو والمشرف التنفيذي-برأي عصفور - لم يفكر في عمل بيبليوغرافيا بالكتب المترجمة من العربية إلى الألمانية، وهو عمل أولي يمكن أن يعين المنظمين على تحديد المشاركين على أساس أكثر موضوعية من التخبط الذي حدث.

- وكان على اتحاد الناشرين العرب أو الجامعة العربية - حسب جابر عصفور - أن يشترك أحدهما أو كلاهما في خدمة خاصة يوفرها الجانب الألماني لمن يريد مقابل الاشتراك، فتقدم له المعلومات والمقالات والأحاديث والتعليقات والمقابلات التليفزيونية المتعلقة بالمعرض يومياً بسهولة..

****

وعلى الجانب الآخر، كان يقف رتل من المتفائلين؛ أزاحوا عن عيونهم كل عوائق الرؤية الموضوعية، ونظروا إلى المشاركة بعين فاحصة، من زوايا مختلفة؛ تلحظ مظاهر النجاح والإخفاق، وتوازن بينهما لتستخرج المحصلة، فكان مما لاحظوه:

١- أن العرب نجحوا في الدخول إلى فرانكفورت موحدين ثقافياً ومتنوعين فنياً حسب خصوصياهم البلدانية والاجتماعية.

٢- وأن المشاركة العربية حققت نجاحاً سياسياً تمثل في كلمات شرويدر وعمرو موسى الداعية لمزيد من التعارف والحوار.

٣- كما حققت حضوراً عربياً واسعاً في الإعلام الألماني خصوصاً، والغربي عموماً، فراحت أخبار المشاركة العربية تتصدر الصحف ووسائل الإعلام.

٤- واكتظت واجهات المكتبات بالكتب العربية والغربية عن العرب والإسلام، استثماراً للحدث.

٥- ووضعت المشاركة اللبنة الأولى في اتجاه بناء علاقات ثقافية متبادلة لمزيد من التعارف بين الثقافتين.

٦- و حققت - حسب جريدة الثورة السورية - موطئ قدم للتواصل والحوار بعيداً عن التنظير في الندوات، عبر لمسات جمالية من الموسيقا والشعر والفن، تحفر في ذاكرة الآخر دون كبير جهد وعناء.

٧- ورأت الحياة (١٠/١٤) أن الجناح المصري كان ذا تصميم جميل، نم عن ذوق رفيع.

٨- كما رأى جمال الغيطاني (في أخبار الأدب ١٠/١٧) أن الدليل الذي أعده الاتحاد، ربما كان أهم ما في هذا المعرض.

٩- ورأى عبده عبود (في البعث ٢٠٠٤/١٠/٢١) أن المشاركة العربية قدمت دعماً لكل من الجاليات العربية لتقوية علاقاهما بثقافاهما العربية، وللمؤسسات التعليمية الألمانية التي تتعامل مع الثقافة العربية.

١٠- وأهما أسهمت في تحسين صورة العرب لدى الرأي العام الألماني.

١١- وأهما كانت تجربة غنية أثمرت خبرة واسعة لدى الجانب العربي لمزيد من التواصل والحوار.

١٢- وأهما - حسب خلف الجراد (في جريدة تشرين ١٠/٤)- تجربة ستتلوها تجارب أخرى، وستكون دافعاً قوياً للعرب لتحدي الصعاب وإثبات الوجود.

١٣- وأكدت (تشرين ١٠/٩) أن إدارة المعرض رفضت الاتهامات اليهودية بعرض العرب كتباً معادية للسامية.

١٤- وأعلن إبراهيم المعلم (في أخبار الأدب٩/١٩) ولادة صندوق مصري للترجمة إلى اللغات الأخرى، بداية لإعلان صناديق عربية أخرى.

١٥- وأكد فولكر نويمان مدير معرض فرانكفورت أن البرنامج العربي كان أفضل مما قدمه أي ضيف شرف سابق (أخبار الأدب ٩/١٩).

١٦- وفي رسالة لصفوح الحلبي من فرانكفورت (لجريدة تشرين ١٠/١٢) أبرز مقولة إبراهيم المعلم: لقد فتح المعرض لنا باباً ثقافياً إلى الغرب، إن مجرد تقديم أنفسنا أمر جيد.

١٧- كما عرضت (الشرق الأوسط ١٠/٣١) مقابلاتها المتفائلة مع كل من رنا إدريس التي فاوضت على شراء حقوق ١٦ عنواناً، وناقشت بيع حقوق ٦ روايات، وحسن ياغي الذي اشترى للمركز حقوق ٨ كتب، ولم يبع شيئاً لأن الطلب على الترجمة من العربية قليل جداً، وهو غالباً ما يتم بالاتفاق مع الكاتب مباشرة - حسب رأيه- وبشار شبارو الذي اشتكى من معاناة الناشرين اللبنانيين الملتزمين باتفاقية (كوبي رايت) من تجاوزات الدول العربية

المجاورة التي لم توقع هذه الاتفاقية مثل سورية، أو وقعتها و لم تلتزم بها كمصر، وهي شكوى – إن صحت نسبتها إليه – مخالفة للواقع ومجافية للموضوعية، شوهت الصورة المتفائلة لزميليه.

١٨– وعرضت (الحياة ١٩/١٠) نموذجاً لفعالية ثقافية يقوم بها ناشر، تمثلت في يومين للعراق ولليمن، أقامتهما مؤسسة (ديوان) التي تديرها أمل الجبوري، كرمت في الأول الفنان العراقي خليل شوقي، ومنحت في الثاني غونتر غراس (وسام ديوان للإبداع الثقافي).

١٩– كما أشاد كل من جمال عبود (في جريدة البعث ١٩/١٠) وحسام شاكر (في موقع كلنا شركاء) بمنتدى الفكر للحوار الذي كان منبراً ثقافياً تجاوز معظم سلبيات المشاركة الرسمية من حيث اللغة والتواصل الإنساني، بينما رأى عبده وازن (في الحياة ١٤/١٠) أن الجناح السوري كان رسمياً في معظمه، ما خلا أجنحة تهتم بالكتاب الديني، وقربه أقيمت محاضرات دينية.

٢٠– ودعا لقمان سليم (دار الجديد) في (الحياة ١٤/١٠) الجامعة العربية إلى تقويم المشاركة العربية على غرار ما تفعله إدارة المعرض الألماني، وتوقع أن يكون التقويم سلبياً.

****

دروس تجربة فرانكفورت : لقد كانت تجربة معرض فرانكفورت غنية وحافلة بالدروس:

١– فأول هذه الدروس أن الثقافة إنما تنمو وتتكاثر وتزدهر وتتألق بالتعدد والتنوع والاختلاف والاحتكاك، وتقتلها الأحادية والتفرد، فالثقافة الأحادية عقيم لا تنجب، مآلها الشيخوخة فالفناء، وثقافة اللون الواحد والطيف الواحد مهما تعددت درجاته، لا تصلح للحوار، ولا تلفت الأنظار..

٢– وثاني هذه الدروس أن الثقافة تأبى أن تكون رسمية، فبمجرد ارتدائها الزي الرسمي، وانضوائها تحت عباءة السلطة، سرعان ما تنزع إلى التفرد والتسلط والاستئثار وفرض وصايتها على الآخر ملوحة له بعصاها، فتفقد بذلك سلطتها الثقافية وقدرتها على الحوار والإقناع، وتفقد بالتالي احترامها لدى الآخر، ما لم تسارع إلى الاندماج في ثقافة المجتمع فتكون جزءاً منها، ولوناً من ألوانها، يتعاون معها، ولا يتسلط عليها لينفيها أو يقصيها، أو يستتبعها ويلحقها به، كما فعل منظمو المشاركة العربية في معرض فرانكفورت تحت مظلة الجامعة العربية ومنظمتها للتربية والثقافة والعلوم..

٣– ومن الدروس المستفادة ضرورة تحديد الجمهور المستهدف في النشاط الثقافي، تحقيقاً لهدف المشاركة والاستضافة الذي يتركز على الحوار بين ثقافتين ساء بينهما التفاهم. فمن المفترض أن يكون الجمهور المستهدف هو أهل الثقافة الغربية وممثلوها من المفكرين والمبدعين، ومن المجتمع، ومن عامة الناس من الزوار العابرين، وأن تتخذ للحوار معهم أدواته، وأن يخاطبوا بلغتهم، وأن يشركوا في الحوار بفعالية.. ومن العبث أن يأتي المستضاف بجمهوره ليتحاور بعضهم مع بعض بين يدي المضيف، وتقتصر مهمته على القيام بدور الشاهد..

٤– والتحضير المبكر، ودقة التنظيم، وحسن إدارة الوقت، والالتزام بالبرنامج المعلن.. كل ذلك من الدروس المستفادة، فقد أثبتت التجربة أن العفوية والارتجال والعشوائية والاستهتار بالوقت والتعديلات المفاجئة على البرنامج، تفسد أجواء الحوار، وتضعف من نتائجه وجدواه.

٥- ولعل المتابعة والمثابرة والاستمرار هو الدرس الأهم في هذه التجربة، فهل سينتهي كل شيء بانتهاء المعرض؟! وهل سيتنفس المنظمون للمشاركة الصعداء، ويخلدون إلى الراحة من عناء التحضير ومشقاته، مثل ما يفعلون في سائر الندوات والمؤتمرات؟!

إن ما بعد المعرض هو الأهم في نظري، فلقد مهد المعرض لنا الأرض الصالحة للحوار، ووفر لنا المناخ الملائم للبذار،فما الذي سنحصده إن لم نبذر؟! وما الذي سنجنيه من الثمار إن لم نواصل الغرس؟!

فرانكفورت حدث استثنائي في حياتنا؛ يمكن أن يكون منعطفاً تاريخياً في مسيرتنا الحضارية؛ نكتشف من خلاله ذواتنا ونضع أيدينا على مكامن الخلل فينا، ونجدد عزمنا على النهوض من عثراتنا، ونعود عبره لتحقيق حضور ثقافي فاعل في العالم بعد طول غياب.. فلا يزال في الوقت متسع لاستدراك ما فات وتجاوز الهنات والعقبات.

ولو أن منظمي المشاركة العربية في معرض فرانكفورت وزعوا نشاطاتهم ووفودهم على مدار العام، وفي أكثر من بلد، لكان ذلك أجدى علينا، فإن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى..

المهم أن يبقى باب الحوار مفتوحاً وأنفاسه ساخنة، وزخمه متصاعداً، ووتائره متسارعة من دون توقف..

٦- والإحساس بالمسؤولية المشتركة عن استثمار هذا الحدث، هو الدرس الكبير في التجربة.

إن تقديم صورة أنقى عن الثقافة العربية الإسلامية في فرانكفورت، مسؤولية عامة تقع على عاتق كل إنسان عربي، وإن حصر هذه المسؤولية بالجامعة العربية وأجهزتها خطأ فادح، ووهم كبير، أفقدا المشاركة كثيراً من الطاقات والفعاليات، وقد أثبتت تجربتنا في فرانكفورت تهافت هذا الوهم، فلم تصادف المؤسسات الخاصة التي أدلت بدلوها وأسهمت بنشاط ثقافي فذ - على قلتها- أي صعوبة، بل إن المجتمع الغربي، بحكم ثقافته، أكثر ترحيباً بالجهود غير الحكومية واحتراماً لها، ولا يخفي امتعاضه من الأنشطة الثقافية التي ترتدي الأزياء الرسمية، وتلقي مواعظها أحادية النظر على الناس..

وإن الفرصة سانحة الآن لدخول قوى ومؤسسات ثقافية جديدة إلى المنتدى، لتتابع ما بدأ، وتكمل ما نقص. وستجد من المؤسسات الثقافية الألمانية كل تعاون وترحاب..

وفيما يتعلق بالاتحاد، فعلى الرغم من الدور الرئيسي والنجاح الكبير الذي حققه الاتحاد على صعيدي المشاركة الرسمي والمهني، فإن لي على هذه التجربة بعض الملاحظات.

١- إن عمل الاتحاد تحت المظلة الرسمية للجامعة العربية، حمله الكثير من الأعباء، وأدخله في متاهة الروتين الحكومي، وأفقده حرية الحركة، وهمش دوره الذي يفترض أن يكون أساسياً ومكافئاً لدور اتحاد الناشرين الألمان، وحرمه من الامتيازات والإعفاءات الممنوحة لضيف الشرف، وأفقده حقه في السيطرة على قاعته المخصصة له والتحكم في برامجها، ووضعها تحت تصرف أعضائه ومؤلفيهم، وتنظيم برنامجه الثقافي وفعالياته المهنية الخاصة به.

وكان الأجدر به أن يعمل على خطين متوازيين: متعاوناً مع الجانب الرسمي، ومستقلاً يتعامل مباشرة مع الجانب الألماني المستضيف، كممثل أساسي وجوهري لضيف الشرف، وليس ملحقاً به يعمل في ظله، وداخل عباءته.

ً٢- إن الاتحاد لم يعمل في الإعداد للمشاركة بشكل جماعي كفريق، وإن أعباء المشاركة قد ناء بحملها أفراد تحمسوا لها، في مقدمتهم رئيس الاتحاد إبراهيم المعلم والزملاء فتحي البس ومحمد رشاد وخالد قبيعة في التحضير، ثم انضم إليهم خلال المعرض الزميلان بشار شبارو ومحمد السباعي.

ً٣- ربما كان مرض الزميل خالد قبيعة قبيل موعد المعرض سبباً حال دون قيام اللجنة المنظمة للجناح المهني ببعض الالتزامات التي وعدت بها.

ً٤- وعلى الرغم من أهمية الندوات المهنية المشتركة التي نظمها الاتحاد خلال المعرض، فإنها- في رأيي- ليست كافية لرفع كفاية الناشر العربي، وإدماجه في حركة النشر الدولية، ولا بد من تنظيم دورات تأهيلية على مدار العام لهذا الغرض، وتبادل الندوات والخبرات مع الاتحادات، والمنظمات الدولية المعنية، وإعداد نشرات وكتالوكات تعريفية بالناشرين وإصداراتهم المميزة، وتقديم جوائز تشجيعية للناشرين الذين يبذلون جهوداً مميزة في هذا الميدان، بعد تقويم أعمالهم وتقديمها والتعريف بها.

الهوامش

[(٢)] كتبت على إثر المؤتمر الصحفي المنعقد تحضيراً لاشتراك العالم العربي بمعرض الكتاب في فرانكفورت.

المحتوى